الشهيد كمال ناصر

على صدوركم باقون

مذكرات أسير فلسطيني في السجن الكبير

أقرب الى الحقيقة وأبعد من الخيال



منشورات 1985 الطليعة

على صدوركم باقون

مذكرات أسير فلسطيني في السجن الكبير

السجن الكبير

وحدهم الثوار والمعتقلون ، هم الذين يعيشون اليوم خارج السجن الكبير الذي تعيش فيه الامة العربية بأسرها . ووحدهم الثوار والمعتقلون هم الذين يمارسون في ظل الهزيمة والاستسلام والقمع ، كامل حرياتهم وإراداتهم ، وكفاحهم على النفس الطويل من اجل تحرير الانسان العربي ، وتحرير الارض العربية .

وحدهم الثوار والمعتقلون ، وبالرغم من كل ألوان الحصار ، ومحاولات التطويق والتصفية الجسدية والسياسية ، وفي ظل ابشع انواع التعذيب والاضطهاد النفسي والبدني ، يشعرون ويعرفون بأنهم ابناء القضية الحقيقيون ، هم روادها وحماتها وسياج أمنها ، الواقفون مع التاريخ ، المناضلون من ضمن فهمهم لحركته وقوانينه ، المنتصرون على انفسهم وعلى اعدائهم ، العاملون بفرح وببراءة رغم الحصار والجراح ، ورغم أحقاد ووحشية الجلاوزة والسفاحين المنتشرين في طول الوطن العربي وعرضه .

وحدهم هؤلاء الثوار من منطلق العقيدة والايمان ، والوعي والفهم ، ومن منطلق التمرد والرفض للواقع المهين ، ومن ظلام الاقبية وزنازينها ، ومن أماكن تواجدهم حيث يكونون ، في السفح ، والجبل ، والمنحنى ، يتصدون اليوم لابشع هجمة بربرية ، تشنها الامبريالية والصهيونية العالمية على الامة العربية ، مدركين وأيديهم في السلاسل والاغلال ، انهم وحدهم الاحرار خارج السجن الكبير الذي تعيشه الامة العربية اليوم ، حكاما ومسؤولين ، وزعماء ، وقيادات ، فقدت احساسها بالتاريخ ، فتأرجحت بين العجز والانحراف لتدخل طائعة مختارة ، وتدخل معها من تستطيع للسجن الكبير ، المخضب بالدماء ، والمتوج بالمهانة والعجز والاستسلام والعبودية ، والمطوق

والمسور بأسوار الامبريالية والصهيونية الغاشمة ، وقوى الثورة المضادة للانسان العربي الجديد المتطلع للحرية والانعتاق ، والمدرك لطبيعة الهجمة عليه وعلى أمته في كل مكان .

وحدهم هؤلاء لا يخافون من امريكا «نيكسون» ، وأمريكا «روجرز وكيسنجر» ولا يرهبون قرارات البنتاغون الداعرة ضد الشعوب ، ولا يخضعون لدسائس الصهيونية وممارساتها ، ومؤامراتها وتهديداتها المتواصلة ، ولحربها النفسية ضد الامة العربية . وذلك لان اختيارهم منذ البداية كان عميقا وواعيا ، ولانهم يدركون طبيعة الهجمة ومعناها على أمتهم ، ولانهم يعرفون ان نيكسون وروجرز وكيسنجر وما يمثلون ، ومن يمثلون على الارض العربية أشباح وأرقام وأقزام مؤقتون ، وأسماء باهتة زائلة صغيرة لا علاقة لها بالانسان والحضارة ، زال من قبلها وارتد عن هذه المنطقة الكثيرون من الجلاوزة والمجتاحين من أمثالهم ، عبر تاريخها الطويل العريض الكبير ، فاستطاعت دائما من خلال شهدائها وثوارها وأحرارها ومعتقليها ان تخرج من سجنها الكبير الى شواطىء النصر والتحرير .

نقول هذا اليوم وسجون الوطن العربي تغص بالمعتقلين والثوار والاحرار ، هذه الظاهرة المرضية التي عانى منها المجتمع العربي طيلة العشرين سنة الماضية ، والتي كان من ضحاياها كبار الثوار والمناضلين . والتي كانت من اسباب هزائمنا الرئيسية المتوالية حيث فقد المواطن العادي حريته على كافة المستويات ، فلم يجد في كثير من الحالات المبررات والاسباب الكافية التي تدفع به للنضال وللدفاع حتى عن هذه الارض !!

نقول هذا اليوم وسجون الاردن بالذات تغص بآلاف المعتقلين الابرياء الشرفاء الذين لم يكن أولهم ولن يكون آخرهم المناضل القائد «ابو داوود» ورفاقه الشجعان ، الذين سجلوا تحت قيادته العديد من الانتصارات البطولية الشعبية على امتداد السنوات الاخيرة ، هذه الانتصارات التي يعرفها ويفهمها كل من رافق وعاش انطلاقة الثورة ، وعاش مخاضها، وعانى مشاكلها ، هذه الثورة التي استطاعت أن تكرس وتجسد ـ كما اثبتت الايام والحقائق ـ ان استراتيجية الكفاح المسلح وحرب الشعب الطويلة المدى هي السبيل الوحيد الصحيح لصد الهجمة الامبريالية الصهيونية وتحرير الارض المغتصبة .

ثم ماذا بعد مع هذا النظام في الاردن ؟ ولماذا تراه يبدي كل هذه الدهشة ؟ وما الذي يجعله يعتقد اننا نستطيع التعايش معه في ظل أوضاعه الراهنة ؟ فهل هي الثقة المتبادلة بيننا وبينه ؟ ام هي قضية التحرير

المشتركة التي نقاتل في سبيلها ؟ ام عداؤنا المشترك للامبريالية والصهيونية العالمية ؟

اسئلة هامة قد حسم الجواب من حولها فيمفهوم المقاومة وممارساتها. وحتى لا يبقى هناك اي التباس حول موقف المقاومة من النظام ، وحتى لا يظل اي طرف من الاطراف المعنية واضعا رأسه في الرمال كالنعامة ، من خلال محاولات التفسير والتبرير ، ومحاولات التفلسف والتنظير باسم قومية المعركة والقتال وما شابه هذه العناوين والشعارات غير الجادة التي تلقى في الهواء هنا وهناك ، فقد اصبح من الضروري وحان الوقت لنؤكد في كل يوم ان كل هذه التمنيات والمناشدات والمحاولات التي تفرغ شعار قومية المعركة من محتواه الحقيقي قد سقطت وانتهت ، لاسيما وان الثورة الفلسطينية قد اعطت هذه التمنيات والمحاولات بما فيها المساعي الاخيرة لتنقية الاجواء العربية في مؤتمر وزراء الدفاع العربي ، أكثر من فرصة ، من ضمن موقف ثوري موحد محدد الملامح ، اكده قادة المقاومة ، في اكثر من مناسبة وأكثر من اجتماع ، ولكن كل ذلك لم يثمر ، وكان من الطبيعي ان لا يثمر ، واندفع النظام في غيه يضرب حتى بهذه المحاولات الفوقية عرض الحائط ، ويعلن بصلف وغطرسة منطقه الاستسلامي ورفضه للقتال ، ولكافة الشروط والمواصفات التي من شأنها ان تحشد وتعبىء ، فتعطي المضمون الثوري الحقيقي للمعركة المرجوة .

لقد تعرضت جماهير أمتنا عبر العشرين سنة الماضية الى سلسلة من المذابح والمجازر على يد العدو الصهيوني ، كما تعرضت هذه الجماهير ذاتها للمهانة والطرد والتشريد على الارض العربية في الاردن ، فمنذ عام ١٩٤٨ ، ومرورا بعام ١٩٥٦ الى عام ١٩٦٧ قاسى وعانى المواطن الاردني والفلسطيني شتى انواع البطش والارهاب على يد النظام الذي توج (بطولاته) ! عام ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ بسلسلة المجازر الدموية ضد الشعب المكافح من اجل استرداد بلده وكرامته .

ان الجماهير العربية تتساءل اليوم عن الفرق في «الكم والكيف» بين ما تتعرض له هذه الجماهير من احتلال صهيوني مباشر مكشوف وواضح ، واحتلال صهيوني قمعي آخر ، يحاول ان يغطي نفسه برداء عربي ، يقوم بالمهمة ذاتها ، وينفذ المخطط ذاته ؟؟؟

سؤال كبير ، واجه الناس ، كل الناس في الماضي ، وضاع في غمرة الاحداث والتمنيات والعجز ، ولكنه يعود اليوم ليطل أكثر الحاحا من اي وقت مضى على ضوء الوضع المهين الاستسلامي الذي يسود اجواء المنطقة،

ويعود ليبرز بحدة وعنف ليتناول بالحساب والعقاب كل العقبات والعراقيل التي تحول دون التصدي للاحتلال والاغتصاب الصهيوني ، وذلك يتناول بالضرورة العقبات والعراقيل في الارض الاردنية ، وعلى امتداد اكثر من رقعة في الوطن العربي ، مما يؤكد المقولة الجماهيرية التاريخية في الفكر السياسي الثوري الفلسطيني المعاصر : «ان عمان طريقنا الى القدس» وان غير عمان كذلك من عواصم راكدة مستسلمة ضالعة قابعة في ظل العجز لا بد ان تكون ايضا : «طريقنا وسبيلنا الى فلسطين» .

ان تحرك الثوار نحو اهدافهم في الارض المحتلة يدفعهم الى عبور ارض معادية شرق وغرب النهر ، حيث يتعرضون لنفس المخاطر والمؤامرات وعمليات التصفية، ومن هنا يأخذ التصدي للنظام شرقي النهر لاقامة الحكم الوطني فيه ، اهمية خاصة في هذه المرحلة ، ليس لان النظام في الاردن يقف عائقا بيننا وبين العدو الرابض غرب النهر فقط ، بل لان هذا النظام يسعى جاهدا لان يمثل بردائه العربي جماهيرنا الفلسطينية والاردنية من خلال المستضعفين والعملاء والمأجورين ، ليوقع باسمها صك الاستسلام والتعامل وتصفية القضية الفلسطينية محور قضايا الامة العربية .

من خلال فهم الثورة العميق لهذه الاوضاع المتردية في الوطن المحتل وفي معاقل الامبريالية والصهيونية ، كان من الطبيعي ان يندفع خيرة الثوار لتحقيق كل الاهداف التي من شأنها مطاردة «اسرائيل» ومحاربتها ، فلهذا اندفع المناضل «ابو علي المهدي بسيسو» على ظهر قارب صغير نحو فلسطين المحتلة ، فألقت السلطات الاسرائيلية القبض عليه وعذبته ، ولهذا اندفع الثائر القائد «ابو داوود» ورفاقه حيث ألقي القبض عليهم في عمان قبل ايام .

ان الروح الثورية العظيمة الدفاقة التي تدفع مثل هؤلاء المناضلين في ظل ظروف الانحسار والتراجع والتآمر وصفقات الاستسلام ، لتحقيق طموحات الثورة وجماهيرها ، هي بالضرورة نفس الروح الذي ستجعل الثورة تواصل اندفاعها العظيم لاقتلاع كل أشكال القهر والاحتلال من فوق الارض المحتلة شرق النهر وغرب النهر .

ان هذه الروح الثائرة المتمردة التي ترفض الهوان والذل والاستسلام ، وترفض الوجود الاسرائيلي في المنطقة العربية ، وتتصدى للامبريالية وعملائها ، تؤكد بالضرورة ايضا بان الثورة الفلسطينية تعرف ماذا تريد ؟ ومن اجل ماذا تقاتل ؟ وكيف تقاتل ؟ وان هذه الروح الثورية المتمردة التي تكبر وتنمو وتترعرع في ظل الثورة ونعيمها وجحيمها، وتنتشر في صفوفها

انتشار النار في الهشيم ، تزيد في قناعة الثوار ، وتعمق من اختيارهم ، وصحة موقفهم من الموت والحياة .

فتحية اكبار ومحبة وكبرياء ، لمن يعرفون طريق البداية للوصول الى النهاية المؤزرة بالنصر ، تحية لهم اينما كانوا وأينما وجدوا وهم يلبسون قيود الاماني والحرية من اجل تحرير الانسان العربي وتحرير فلسطين ، وتحرير الارض العربية المغتصبة ، تحية لارواحهم وانفسهم الطليقة ، تحية لهم تنبض بالفهم والوعي والتقدير ، ــ لانهم وحدهم ــ وكل الثوار معهم يعرفون بأنهم وحدهم خارج السجن الكبير .

كمال ناصر

٢١ شباط ١٩٧٣



على صدوركم باقون

مذكرات أسير فلسطيني في السجن الكبير



★★★

٣٠ حزيران سنة ١٩٦٧ :

خرجت من بيتي لاول مرة في هذا الصباح ، مشيت في شوارع بلدتي الضيقة وأنا أتمتم واتساءل ، ان كنت فعلت حسنا بالخروج .. جسدي منهك ، أعصابي مشدودة أجل .. اجل هذه هي المرة الاولى التي اخرج فيها بعد ان حدث كل الذي حدث وتم كل الذي تم ..

يا إلهي لماذا لم تقض عليّ تلك الرصاصة التي مزقت بعض شرايين جسدي ..؟ لماذا لم أمت مثل كل البسطاء الذين ماتوا ؟؟ يا إلهي جنبني هذه التجربة فأنا وللمرة الاولى وبعد خمس وعشرين يوما عشت فيها مع هواجسي وآلامي الروحية والجسدية وحدي .. وحدي مع أمي وشقيقتي، اخرج اليوم لارى العالم من جديد ، لارى الناس ، لارى الاصدقاء .. ولارى

اري !! من ؟؟ أكاد أحس بالحمى تعاودني ، وكوابيس تهجم عليّ من جديد وأنا اكتب هذه السطور ، فلا اقوى حتى على تسجيل كلمة العدو المحتل لوطني وأرضي .. وبيتي ..!!

اجتزت الدهاليز والازقة للساحة العامة .. كلهم كانوا هناك ، شيوخ البلدة .. شبابها ، نساؤها ، اطفالها واجمون ، صامتون ، ولكنهم يتحدثون ويشترون ويبيعون . نظرت اليهم جميعا ، صافحتهم وصافحوني ، حدثتهم وحدثوني ، حدقت في عيونهم جميعا الا الاطفال ، وحدهم كانوا يحدقون في وجهي ، وفي ظهري ، وفي صدري ، وكنت اهرب من نظرات عيونهم ، اهرب من خناجرهم التي كانت بلا وعي تطعنني في كل مكان من جسمي وروحي ووجداني وعقلي .. كيف اهرب من هذه العيون ؟؟ كيف ؟؟ ما زلت حتى الان لا استطيع !!

مشيت نحو تلة في البلدة ، طالما جلست عليها وخلوت الى نفسي فوقها أحاول ان ألملم شتات نفسي ، مستعرضا بعض ما قد تم من أحـــداث ، ومخططا للمستقبل الذي اكاد لا اتبين ابسط ملامحه من خلال الهزيمة التي مزقتني شخصيا من خلال هزيمة أمتي وبلادي في الخامس من حزيران .. لماذا ؟ وكيف ؟؟ ومن غير المعقول ان يحدث كل هذا وبكل هذه السرعة .. وبالرغم من كوني لست غريبا كل الغربة عن الاسباب والمسببات فلم اكن بحالة نفسية او جسدية تسمح لي باستيعاب وفهم وتقبل كل ما وقع ..

كانت الشمس قد بدأت تتوسط صدر السماء وأنا في شبه غيبوبة ، وفجأة احسست بالواقع يشدني الى الارض ، وأدركت انني بالرغم مـــن حريتي المزيفة التي اتمتع بها في بلدتي النائية بعض الشيء عن مراكز تحرك العدو ونشاط عناصره في التغلغل الى كل ركن في المنطقة ، ادركت انني في الاسر شئت ام ابيت ، وانني اعيش في السجن الكبير وانني عاجلا او آجلا سألتقي بأحدهم ، او ببعضهم عرضا او صدفة ..

بدأ هذا الاحساس بالاسر يكبر في نفسي ، واختلط هذا الاحساس بهول الحقيقة وهو انه لا بد من الالتقاء بهم ، رؤيتهم للمرة الاولى ، هـــؤلاء الصهاينة القتلة اعداء أمتي ومحتلي وطني وأرضي .. كان لا بد من الهرب ، بطريقة ما ، بالاختفاء ، بالتسلل ، نفسي ترفض هذا اللقاء وتعافه ، لست اخشى من شيء ، فأنا اعرفهم ، تماما ، تماما ، واتصورهم وأفهم طبيعة حركتهم التوسعية .. ومع ذلك فلست أريد رؤيتهم ، وهذا موقف شخصي اتخذته خلال لحظات وبدأت أفكر رغم جراحي ومرضي كيف اهرب وكيف

انجو من هذه الاهانة التي قد تصفعني بين لحظة وأخرى ..

وتدخل القدر في صميم حريتي وموقفي الشخصي . كانت الدورية الاسرائيلية قد بدأت تقترب من التلة التي أجلس متداعيا فوقها .. سألوني عن اسمي وعن هويتي ، فسميت لهم اسما وأشرت لهم انني من تلك البلدة، حاولوا ان يدخلوا معي في حوار اي حوار . كانت الارض تميد من تحتي ذلا وعارا، كنت على ما أذكر أتمتم لهم أنني مريض، مريض وأكرر انني مريض.. نظروا الي ملياً .. رفعت عيني نحوهم مرة واحدة ، لاشاهد كل المعاني والمشاعر التي تخيلتها ترتسم في عيون ووجوه هؤلاء الناس بالذات ، بالرغم من الغلالة المصطنعة التي كانوا يحاولون من خلالها تغطية مشاعرهم الحقيقية ، بالاستعلاء والغطرسة ، والكراهية والحقد . ووراء كل ذلك لمحت ومضات من القلق والاضطراب تبرق من خلال تلافيف كل المشاعر التي لمحتها في ذروة احساسهم بالنصر المزيف ..

احساس رهيب ، وتجربة هائلة سريعة غنية ، مارستها في دقائق لا يعرفها ولا يفهمها الا من مر بها او عاناها .. تجربة تركت في نفسي آثارا وانطباعات كان لها وما يزال لها ذيولها طيلة تجربتي الرهيبة في ظل الاحتلال ..

ادركوا ولمسوا انني مريض فذهبوا .. وقمت متجها نحو بيتي .. كان العار وشتى الاحاسيس تلفني ، مشيت مطأطأ الرأس .. متحاشيا النظر الى عيون الاطفال .

٥ تموز ١٩٦٧ :

اذاع راديو العدو ان النار اطلقت على احدى دورياته بالقرب من معسكر للاجئين في منطقة رام الله .. وقد حذر العدو وتوعد ولم يعلن عن نسفه ثلاثة بيوت في القرية الوادعة الصغيرة قرب المخيم ، عرفت ذلك فيما بعد، وعرفت ايضا ان الرصاص أطلق بالفعل من مكان ما حول القرية ..

كان الطبيب قد أوصاني وألح علي بالنزول الى المدينة لمعاينة جرحي الذي ما زال ينزف، وكنت أماطل وأماطل حتى تتشبع الصورة في عيني .. لست ادري لماذا صممت في هذا اليوم على النزول ، وبالفعل ركبت الباص اليتيم في البلدة في الدفعة الثانية من صباح اليوم نفسه وانطلقت الى المدينة ..

لم يكن الركاب يثرثرون كعادتهم في الماضي ، وجوم وأسى او ابتسامات كالحة وجمل متقطعة متحشرجة الانين «يا الله» وبتهون ، والله يفرجها ، ولا حول ولا قوة الا ..

وتقدم الباص نحو المدينة وبدأ في اجتياز شوارعها الواسعة وفورا ادرك الجميع ان ثمة رائحة غريبة ، وأشياء غريبة تلف الشوارع وتسحب ظلالها حول بيوتها ، وجوه جديدة ، قامات جديدة ، ذقون جديدة ، فساتين جديدة ، لغة جديدة غصت بها المدينة والشارع الرئيسي بنوع خاص ، تأكل وتتفرج بوقاحة وبصلافة ، وكأنها لم تأكل طيلة حياتها ، ولم تعرف الفلافل والحمص والبيض والكعك منذ أجيال وأجيال .. ظاهرة تكررت على مدى اشهر طويلة ، ظاهرة شراء وألتهام وابتلاع كل شيء في المخازن العربية تثبت فيما بعد انها من ضمن تخطيط اقتصادي سريع يستهدف تفريغ المخازن العربية خاصة الملبوسات وقطع الغيار والادوية وكل ما يمكن ان يملأ الصهاينة مكانه من بضاعتهم وانتاجهم ..

وهنا احب ان أسجل للحقيقة ، وبعد ان نزلت من الباص ، وانطلقت في الشارع الكبير ورأسي تطن بيت المتنبي الشهير ..

«ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان»

احب ان أسجل التحفظ الشديد ، والبرود القاسي الذي كان يستقبل فيه «حتى التجار» هؤلاء المحتلين ، وكان الكثير من هؤلاء التجار قد اقفلوا متاجرهم طيلة الايام الاولى للاحتلال ، فعادت السلطة وفرضت عليهم فتحها ، وأنا اشير بشكل خاص الى التجار لانه سيكون لنا حديث عنهم اثناء التعرض الى المقاومة السلبية التي انطلقت فيما بعد تعمل في تنظيم المقاومة من ضمن الواقع في ظل الاحتلال ..

كان المؤذن «ابو احمد» وهو رجل خفيف الظل يجلس على احد نواصي الشارع الرئيسي الكبير امام متجر قريبه يصيح بين الفينة والفينة «يا فتاح يا عليم» وكنت اقترب منه وأنا أغذ السير نحو هدفي ، «يا فتاح يا عليم» وقام مرجبا بصديقه القديم الذي هو انا ، صديقه الذي لم يره طيلة هذه الفترة ..

من خلال «ابو احمد»* اخذت اتعرف على مطلع معالم الجريمة التي بدأت سلطات الاحتلال الصهيوني ترتكبها في بلادنا ومنذ الشهر الاول .. وبالمناسبة «ابو احمد» خرج مع شخصين آخرين في شهر كانون الاول من العام نفسه في مهمة خاصة على ما يبدو وعلمت انه استشهد في معركة

الحمة عام ١٩٦٩ .

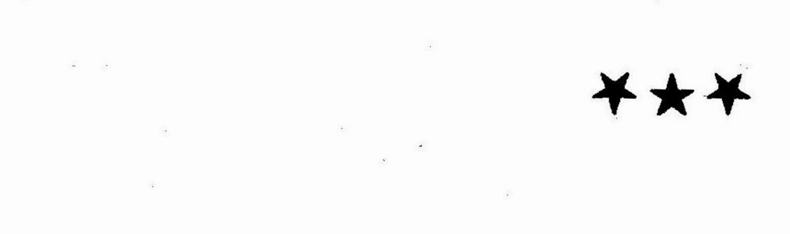
سمعت اشياء كثيرة ، وتعلمت اشياء اخرى مع العم «ابو احمد» رأيته بعدها مرتين ، اين مدينة يافا الذي لم يكن ليدور في خلدي انه يعرف كل هذه الامور .. لا تخرج يا استاذ اسمع صوته للآن يرن في أذني ، «ابق في بلدك ، تعرف عليها من جديد ، واعرف هؤلاء الناس ، ماذا يفعلون ؟ وماذا فعلوا في العشرين سنة الماضية ، لقد دخلتم الحرب دون ان تعرفوا مجتمعكم ولا مجتمع عدوكم ، هذه فرصتك .. ابق ولا تخرج ، واسمع نصيحة صديقك الرجل البسيط» ..

وعندما سرت نحو الفندق الكبير لالتقي بزملائي المحامين الذين كانوا يجلسون بلا عمل ، ويتحلقون حول المذياع ، كانت كلماته ما زالت ترن في أذني .. ولكنني كنت اعلم انني قد قررت البقاء ولن اخرج ابدا ..

«الحلقة الثانية ، لقاءات سياسية كان يفرضها العدو في بيوت بعض المحامين والسياسيين القدامى حضر بعضها صاحب المذكرات واستمع لاكثر من حوار دون ان يناقش ، ثم دخول صاحب المذكرات الى الارض المحتلة في عام ١٩٥٨ لاول مرة ، وانطباعاته ومشاهداته» ..

العدد الاول

٢٨ حزيران ١٩٧٢



★★★

١٠ تموز ١٩٦٧ :

كلمات «ابو احمد» الذي استشهد فيما بعد في معركة الحمة عام ١٩٦٩ ما زالت ترن في أذني : «ابق في بلدك ، تعرف عليها من جديد ، واعرف هؤلاء الناس ، ماذا يفعلون ؟ وماذا فعلوا في العشرين سنة الماضية ؟ لقد دخلتم الحرب وانتم لا تعرفون مجتمعكم ، ولا مجتمع عدوكم ، هذه فرصتك ، ابق ولا تخرج» ...

صممت على البقاء ، واستأذنت زميلي المحامي «أ» لاقيم معه في بيته

ريثما أتدبر امري ، ولم تكن مدينة «رام الله» هي المدينة المعزولة عن قلب المجتمع الفلسطيني بحيث لا يقصدها الصهاينة «للفرجة» مع الاسف ، او للاصطياف ، او للاختلاط بالناس . فالمدينة ، ومنطقتها بالذات، حية نابضة في التاريخ المعاصر بنشاطها وتقدمها في مختلف المجالات ، ولعل من ابرز ما يميزها كثرة المثقفين والمتعاطين بشؤون الحياة العامة ، الاجتماعي منها والسياسي ، ولم يكن من الغريب ابدا ان يتوافد عليها الصهاينة بمختلف الحجج والاسباب ، لاقتحام ما تبقى ولم يقتحم من العقل والمجتمع العربي فيها ..

كانت ظاهرة مؤلمة ان نشهدهم يتوافدون بالمئات بل بالآلاف احيانا ، صباحا وظهرا ، ومساء ، يدخلون الفنادق ، والمقاهي ومختلف الاماكن العامة ، والبيوت في كثير من الحالات بحجة التفتيش عن السلاح احيانا ، او عن اسماء لرجال وشباب معروفين بماضيهم الوطني احيانا اخرى . وكانت معاملتهم دائما تتخذ نفس الطابع الممجوج لكل من عرف او قرأ عن اساليبهم ، حديث مصطنع مزيف عن السلام وكأنهم آلات يكررون ما لقنوه واتفقوا على قوله ، ومن ثم الاسلوب الصارم الغلاظة التي ترتفع الى مستوى العنف والبطش عندما كانوا يجابهون بالرفض والازدراء او يعثرون على شيء يشير الى اي نوع من انواع المقاومة بدءا بالمنشور وانتهاء بالمسدس او الرصاصة ..

اصبحت مع الايام نهما لرؤيتهم وهم يمارسون هذه العمليات المدروسة المخطط لها ، وأصبحت واعيا على الحرب النفسية التي اخذوا يشنونها على شعبنا، كما حاولت ان اتتبع بالاهتمام الشائعات الرهيبة التي كانوا ينثرونها وينشرونها بمختلف الوسائل والاساليب في اوساط الجماهير .. كنت وبعض الزملاء نتابع ونراقب ، وكان الناس في غالبيتهم الساحقة ما زالوا في ذهول تحت وطأة الهزيمة والاحتلال ، يتحلقون في الصباح والمساء ، في البيوت والدكاكين والصيدليات الكثيرة في المدينة ، يفلسفون الامور ، ويتأوهون ويتحسرون ، يغضبون ويثورون فيما بينهم ، ويتجادلون ، ويحللون ويجتهدون في قرب او بعد الساعة التي ينتهي فيها الاحتلال .. ويستمر الحديث ويطول الجدل ، وتطرح القضية من جذورها ، وتكثر الاجتهادات .. وينتهي الليل والآذان مشدودة الى «الترانزستور» ، وسيلة الجماهير الوحيدة التي شاركت فيها في حرب الخامس من حزيران ...

ويلتقي الاصدقاء في بيت زميلي «أ» في النهار ليتفرقوا في المساء ،

والسؤال الكبير يلح عليهم في كل يوم : ماذا نفعل ؟ وماذا نعمل ؟ وكيف ؟ وكيـــف ؟

١٥ تموز ١٩٦٧ :

في القسم الغربي من المدينة ، حيث يطل منزل زميلي المحامي من بعيد على الساحل من فلسطين عام ١٩٤٨ ، وحوالي الساعة الرابعة من عصر هذا اليوم ، كان الصمت يخيم على الاشخاص الخمسة المعذبين الحائرين ، الباحثين ، اللاهثين وراء السؤال الكبير ماذا نعمل ؟ وماذا نفعل ؟ وكيف؟؟ وفجأة توقفت سيارة امام الدار الصغيرة التي كانت تضمنا ، مزق وقوفها الصمت من حولنا ، وحرك فضولنا لمعرفة الطارق او الطارقين على الباب.. ونهض زميلي «أ» ليفتح الباب لنسمعه «يتأوه ويتسهل» ويعانق القادمين وكأنهم معه على موعد طال وبعد أمده .. دخلوا حجرة الجلوس ، كانـــوا ثلاثة ، قدمهم صاحبي الينا قائلا «اخواني وأصدقائي من الارض المحتلة من فلسطين ، لم أرهم منذ عشرين عاما» ... شاركناه فرحتـــه بلقائهم ، وجلسنا لنستمع لقصة من قصص العمر ، ولعلها قصة العمر بأكمله ... اثنان عرفت من سياق الحديث ــ وبعد ان توطدت الثقة بالتعارف ــ ينتميان الى منظمة تدعى منظمة «الارض» وواحد من الحزب الشيوعي في الارض المحتلة ، وكان ثلاثتهم رفاقا لصاحبي «أ» ايام الدراسة والنضال قبـــل العدوان الاول ، لقد قرر هؤلاء والفوضى ما تزال تدب في كل مكان ، ان يتدبروا أمورهم فيجددوا صلاتهم وصداقتهم بصديقهم القديم .. لم يكن من السهل السيطرة على الحديث او تنظيمه في اول الامر ، فكانت ذكريات الماضي تختلط بالحاضر وتكاد تخلق جوا هستيريا طغى على الموضوعيـــة طغيانا كاملا ... وبدأت أحس بصغر وتفاهة آلامي وأوجاعـــي امام آلام واوجاع هؤلاء الناس الذين قضوا عشرين عاما تحت الاحتلال الصهيوني ، واختلطت في ذهني الافكار وانا استمع لخيبة املهم تتدفق مرارة مـــن شفاههم ، كما انني كنت ألمح العزيمة والاصرار والوعي يطل من خلال كل ما قالوه بينما اخذت الاعصاب والعواطف تهدأ ، وعاد الحديث الموضوعي العميق يتدفق في كلماتهم وتحليلهم للماضي وللحاضر وللمستقبل علـــى ضوء التجربة والممارسة في مجتمع الصهاينة الغزاة ...

وحدهم هؤلاء الناس يعرفون الحقيقة وكل الحقيقة عن الصهيونيـــة

والاحتلال واسرائيل .. وحدهم هؤلاء الناس ومعهم الثلاثمائة الف فلسطيني الذين عاشوا العشرين سنة الماضية في ظل ما يسمى بدولـــة اسرائيل ، وحدهم الذين يعرفون كل شيء .. واحسست بعد مضي الساعات الاولى الاربعة معهم بأنني تلميذ ابتدائي بسيط في دنيا المعرفة من واجبي ان اتعلم واتعلم واتعلم ، حتى استطيع ان ادافع عن بلدي وامتي واطرد أعداءها من ارضها المغتصبة ، واكتشفت عبر هذه الساعات الاولى ، ان حب الوطن وحده مهما عمق وكبر في النفس لا يكفي مطلقا لتحقيق النصر ، وانمـــا المطلوب وفي مثل قضيتنا المعقدة الشائكة ، وأمام هذا الخصم الاستعماري الاستيطاني ، ان نتزود بالمعرفة ، معرفته ، وفهمه ، ودراسته ، ماضيـــا وحاضرا ، كما ان المطلوب ذلك واكثر من ذلك بكثير ...

كان الفجر يلم بقبضته الرمادية ، آخر غلالة من غلائل الليل ، يطل على الوجوه المعذبة المحتقنة باليأس والامل .. وكنت أجلس في ركني استمع على غير عادة مني ، اكثر مما اتكلم ، واختزن في ذاكرتي الفتية كل مـــا سمعت ، انقشه في خلايا عقلي باصرار لاطرد الكثير من الاوهام التي كانت تعشعش فيه ، وكنت بين الفينة والاخرى أسرح بخيالي مع الحوار والنقاش الذي يدور في أوساطنا نحن المحتلَين الجدد فأتذكر الفارق الكبير في التحليل وفي التفسير وفي المعرفة بيننا وبين هؤلاء الناس ... كنا نراهن احيانا فيما بيننا فيقول احدنا سيخرج المحتل خلال ثلاثة اشهر ، ويراهنه الاخر على ستة اشهر او على سنة في الكثير الكثير ...

وحدهم هؤلاء الناس ومن يمثلون من عرب ١٩٤٨ يعرفون بأن الاحتلال لن ينتهي ، وان اسرائيل لن تخرج ، وان اسرائيل لن تُهـــزم الا بشروط وبشروط قاسية جدا ، فهل هذه الشروط متوفرة ؟ انني اتساءل ولم يمض على الاحتلال سوى شهر ونصف الشهر ، اتساءل عن ذلك ، ولقد بدأت من خلال المعركة ادرك بعض الحقيقة التي من خلال هذه الجلسة وما تبعها من جلسات ، ومن خلال كل ما رأيته وشاهدته ومارسته سأسجله فـــي مذكراتي لعلها تكون ذات فائدة اذا ما قدر لها ان تظهر في يوم الـــى الوجود ...

•

٢٢ تموز ١٩٦٧ :

مرت الايام سريعة بين الخامس عشر من تموز وهذا اليوم الذي أدون

فيه هذه المذكرات . اسبوع واحد مر على لقائنا باخواننا في الارض المحتلة او الوطن المحتل على ما يحلو لبعض الكتاب تسميته .. وفي هذا الاسبوع قطعنا أشواطا نظرية وعملية فيما سميناه بالرد على السؤال الكبير ما العمل ؟

وقررنا سلسلة قرارات وتوزعنا الادوار مستفيدين من مجموعة الارشادات والنصائح والخبرة التي قدمها لنا الاخوة في مكافحة الاحتلال تحت شعار «الكفاح السلبي» ولم يكن القرار بهذه الخطوة قد تجاوز معرفته الخمسة اشخاص بما فيهم زميلنا «أ» ولقد أستمر العمل في السرية فترة طويلة قبل ان نخرجه منظما الى العلنية وكان لا بد من ذلك ...

ومرة اخرى وفي عصر ذلك اليوم ، وبينما كنا نحن الخمسة نتحاور حول أسلوب العمل ، ونتدارس بعض الشائعات التي ينشرها العدو ، هنا وهناك ، ونحلل بعض الاتصالات التي فرضها بعض المسؤولين الاسرائيليين على بعض رجالات السياسة في المنطقة ، سمعنا صوت اكثر من سيارة تعلن عن وقوفها امام البيت ، قفز صاحبي الى النافذة وعاد ليقول «سيارة عسكرية واخرى مدنية توقفت ونزل منها قوم لا اعرفهم وهم يتقدمون نحو البيت» . طلبنا اليه ان يفتح الباب ، فليس عندنا ما نخشاه ، وكانت رقعة الشطرنج دوما جاهزة لتبسط في مثل هذه الحالات .. دخل ثلاثة اشخاص ومعهم ضابط ، وفجأة سمعنا احدهم يصافح الزميل «أ» ويقول له : الا تذكرني انا «عبد العزيز الزعبي» زميلك ايام الدراسة أتذكر ؟ قال صاحبنا تفضلوا ، ولكن عبد العزيز الزعبي الذي عرفت فيما بعد انه عضو في حزب المابام الاسرائيلي لم ينتظر حتى يدخل الصالة بل قال : دعني أعرّفك على السيد موشي ساسون مستشار ومدير مكتب رئيس الوزراء السيد ليفي أشكول «ووالده الوزير المعروف الياهو ساسون وهو يقوم بجولة لمقابلة بعض السياسيين والمحامين والمثقفين» تمالك صاحبي جأشه وقال : «كان يجب ان نخطر بهذه الزيارة ونحن نعتبرها مفروضة علينا ومع ذلك فأهلا وسهلا وماذا تريدون ، عندي بعض الاصدقاء» .

كانت هي المرة الاولى التي ارى فيها مسؤولا على شيء من الاهمية من اعدائنا ... قدمنا صاحبي اليهم بأسماء عابرة فيها الكثير من الابهام والخلط وقد قصد ذلك بالفعل ، ولم يظهر انهم اهتموا لوجودنا كثيرا فكان صاحبنا هو المقصود فقد كان محاميا بارزا وسياسيا قديما (طردته السلطات المحتلة فيما بعد) كما ان عبد العزيز الزعبي كان مكلفا من خلال علاقاته

الماضية بمفاجأة بعض معارفه بهذا الاسلوب ، أسلوب الزيارات ... وهكذا بدأ السيد ساسون حديثه باللغة العربية قائلا بأنه اصلا من سوريا وانه «آن الاوان لان نتحدث حديثا صريحا عن السلام والتفاهم» . وأعلن في مطلع حديثه «بأن اسرائيل مظلومة وان العرب هم الذين اعتدوا عليها وأعلنوا الحرب ضدها وابتدأوا القتال» . ثم تكلم بصفاقة عن حق اليهود التاريخي في فلسطين ... الخ ... الخ ... من الاسطوانة التي حفظناها مع الايام، وما زلنا نمجها وسنبقى حتى الابد ...

أصغينا له على مضض .. وكان من المؤلم ان «يقود» له عبد العزيز الزعبي حاثا صاحبي على الحديث ... وفجأة سأل ساسون وكنا ننظر بعضنا الى البعض الاخر دون ان ندري هل ننفجر ام هل نهدأ ... ورد صاحبي على غير انذار وبشيء من العصبية المشهورة عنه محاولا أن يكبح جماحه فقال : «اسمع يا ساسون حسبنا انكم احتللتم ارضنا ، فلا تحتقروا ايضا عقولنا ، نحن الجالسين هنا على الاقل نفهم المشكلة وطبيعتها ، ولا فائدة من الحديث معا ، هل تشرب الشاي ام القهوة» ؟ وهنا نظر اليه ساسون وقال : «ولكن ماذا تقترحون نحن مفاجئون بكل الاراضي التي احتللناها ولا نعرف ماذا نفعل» . ولست ادري انا ولماذا وللحظة وجيزة كدت اصدق هذا الاشقر الاملس وهو يتصرف وكأنه حائر ... ولكن صاحبي قطع عليّ افكاري عندما قال له «النصيحة الوحيدة التي ننصحها اذا كنتم تطلبون النصيحة هي ان تنسحبوا ، هذه الارض ليست لكم ، ولا يحق لكم البقاء فيها دقيقة واحدة» ...

وهنا انتفض ساسون وقال بشيء من الانفعال : «ولكن يا سيد «أ» هل تعتقد اننا صبرنا الفي سنة وحاربنا كل هذه الحرب وخسرنا كل هذه الخسائر حتى ننسحب بناء على رغبة منك» .

كان الموقف مفجعا ، مضحكا ومبكيا في وقت واحد ، لعبة قذرة وأسلوب قذر حتى في الحوار .. ابتسم صاحبي وسأله : «اذن ماذا تقترح انت ؟» قال ساسون ببساطة بعد ان تحدث عن تضليل العالم العربي للفلسطينيين «لماذا لا ننشىء لكم كيانا خاصا تعيشون فيه معنا ، تكون وزارة الخارجية والدفاع معنا فقط ، اما المال فيصرف الامريكان علينا وعليكم ، كبروا عقولكم ولننه هذه المشكلة ، ان المثقفين مسؤولون عن اقناع الناس بالتخلي عن الدول العربية التي خدعتكم ، وعلينا نحن وأنتم ان نتعايش» .

قال صاحبي : «انت تعرض علينا محمية اسرائيلية ، ونحن باختصار

نرفض الاحتلال ، واذا سولت لكم انفسكم باقامة حكومة «كويزلنج» في ارضنا ، فسيقاومها الشعب وسيرفض الاستسلام ، وانه من الطبيعي ان نرفض الاحتلال» .

وهنا احتد ساسون وقال : «انني استغرب كيف تتحدث معي بهذه اللهجة وكأنكم المنتصرون ، انك تنسى اننا هزمناكم مجتمعين في مدة ستة ايام» . تكلم ساسون بعنجهية لا تطاق فانتفض صاحبي قائلا : «نحن أدرى بهذه الحرب وملابساتها مما تظن ، ونحن لم نقاتل ، وبغض النظر عن كل شيء فاننا نشعر بأنكم لصوص دخلتم بلادنا عنوة واغتصبتم ارضنا وهذا ليس من حقكم » ...

وهنا ظهر الغضب على وجه ساسون وفقد سيطرته على نفسه وصاح قائلا : «اسمع يا سيد «أ» عليك وأمتك ان تعلم انكم ترتكبون اكبر خيانة في حق وطنكم اذا شعرتم انكم بعد خمسين سنة تقدرون على هزيمتنا وتقبلون اليوم معنا اي حل وسط أو تعايش ، عليكم ان تعلموا ان هذه الارض اما لنا او لكم ، انها لا تتسع لنا ولكم ، ان حلمنا هو اسرائيل الكبرى وقد حققنا بعضه وأعدنا القدس وسيكون وهما منكم وغباء اذا ظننتم اننا سنتراجع عن شبر» .

انفعل ساسون وقال الحقيقة ... أغضبه واستفزه صاحبي ، فلخص الموقف الصهيوني في كلمات ... هذا الموقف الذي ازدادت قناعتنا به وتزداد يوما عن يوم كلما زادت معرفتنا بهم في ظل الاحتلال ومن خلال اللقاءات الكثيرة التي تمت مع اقصى اليمين واقصى اليسار الاسرائيلي اذا كان هناك يسار حقيقي في اسرائيل ، اذا استثنينا الحزب الشيوعي العربي «الراكاح» والذي يبلغ حوالي ٩٠ بالمئة من اعضائه عربا من ابناء فلسطين(١) .

كنت اكثر من صامت في هذه الجلسة ... لم أنبس ببنت شفة ... كان خيالي قد شرد الى الاردن ، الى الملك حسين شخصيا ، الى العرب وكل حكام العرب في الخامس من حزيران . والغريب انني وبالرغم من جراحاتي من المعركة في حينه ، وبالرغم من الهزيمة المنكرة التي يتحملون مسؤولياتها تاريخيا ، لم اشعر بالحقد عليهم ، تذكرت السياط التي ألهبت ظهورنا في اكثر من سجن عربي ، فشعرت وبالرغم من فهمي بأن «المعلم» واحد في اكثر من مكان تقريبا ، الا ان سياط بني قومي وفي هذه اللحظة

---

١ ــ هذه القضية بحاجة الى دراسة وتمحيص ، ولا ندري بناء على اي معيار جعل الشهيد هذا الحزب ثوريا ؟ «المحقق» .

بالذات أرحم من كلام هؤلاء الكلاب، المتغطرسين الذين يصرون على اغتصاب ارضنا وأذلالنا ، كنت اقول لنفسي يا حبذا لو يمر بعض المسؤولين العرب بهذه التجربة ، ربما تحرك فيهم شيء ، ربما أحسوا بالخطر ... هذه المشاعر أسجلها في حينه دون ان اعفي احدا من مسؤولياته فالايام اثبتت في الماضي ، وستثبت الارتباط العضوي بين بعض هؤلاء المسؤولين وبين اسرائيل ، لم تكن الضفة الغربية مفرغة من السلاح بالصدفة ، ولم نمنع من القتال بالصدفة ، ولم تنهزم الامة العربية كلها بالصدفة ...

كان كل ذلك يمر في خيالي ، ويجول في خاطري وأنا استمع لكل ما اسمعه من ساسون ، ولم يكن لي اي خيار في الاختيار فضلت التعاسة والعذاب والجلد في ظل اي سجن عربي عن غطرسة واحتلال هؤلاء العبيد متمثلا قول الشاعر العربي :

وان الذي بيني وبين بني ابي
وبين بني عمي لمختلف جدا
اذا اكلوا لحمي وفرت لحومهم
وان هدموا مجدي بنيت لهم مجدا



٧ آب ١٩٦٧ :

المقابلة التي تمت في بيت زميلي المحامي «أ» مع السيد موشي ساسون مستشار ومدير مكتب رئيس الوزراء السيد ليفي اشكول اصبحت حديث البلد وانتقلت أخبارها في كل انحاء الضفة الغربية وقطاع غزة ، لقد كان كلاما هاما وخطيرا عبر عنه ساسون عندما أستفز ولخص فيه الموقف الصهيوني تلخيصا كاملا اذ قال : «اذا كنتم تستطيعون ان تهزمونا في خلال عشرين عاما ، فانكم تخونون وطنكم وتاريخكم اذا فكرتم بالسلام (يعني العرب) او بالحلول الوسط ، هذه البلاد كلها اما لنا او لكم ولا مكان للطرفين » .

بعد الضجة التي حدثت آثرت الانزواء وكنت انفي حضوري لتلك الجلسة العاصفة ، ولكنني ايقنت بيني وبين نفسي انني تلقيت الدرس كاملا ، وظهرت لي الحقيقة ناصعة دون طلاء ، ولم يعد عندي مجال للتمنيات، واعلنت ايضا بيني وبين نفسي انني فهمت وأدركت واستوعبت وهضمت كل ما قرأته وعرفته عن الحركة الصهيونية ، واعتبرتها مرحلة ولادة جديدة لي شخصيا على حدتها يمكن ان اتحرك وان أناضل البقية الباقية من حياتي ، كما انني ادركت الخطر وأدركت وعورة الطريق وصعوبتها ، والقوى الرهيبة التي سيضطر شعبنا الاعزل الى مصارعتها في ظل الاحتلال ..

انسحبت من المجموعة من ضمن خطة لانني قررت البقاء ، واتفقنا على الاتصال بوسائلنا الخاصة .. وما زلت قادرا على البقاء .. ولذلك كان من الضروري ان أغير أسلوب عملي ، ومكان اقامتي ، وأبني جسورا من خلال الذين يسمون انفسهم بالمعتدلين لاتمكن من التغلغل الى هذا المجتمع الجديد الذي انفتح علينا فجأة وبدون مقدمات ، لمعرفته وتقييمه وفهم عقله وأسلوبه في التحرك والعمل ، لاتمكن من نقل ذلك لابناء شعبنا ، وكنت ادرك ان طبيعة مهمتي لا تقل عن طبيعة من يخوض المعارك بالرصاص والمتفجرات بل واكثر ...

١٣ آب ١٩٦٧ :

تناقلت اوساط المدينة اليوم خبرا يفيد ان الجنرال موشي ديان يريد ان يجتمع برئيس وأعضاء بلدية المدينة ـ وعددا كبيرا من الوجهاء والمخاتير وشباب البلد في مبنى البلدية ، وكانت المعلومات والاخبار التي كانت تنشر هنا وهناك عن اطلاق الرصاص على سيارات العدو ، وتفجير الالغام في كثير من الاماكن قد تأكدت للجميع ، وحتى الاصطدامات القليلة التي وقعت بين جيش (الدفاع الاسرائيلي) وبين القوى غير المنظورة والمعروفة في الضفة الغربية والقطاع قد بدأ الناس يتناقلون أخبارها في السر والعلانية لاسيما وردود الفعل الاسرائيلية كانت قاسية وعنيفة ..

وهكذا فقد بدأت ابحث عن صيغة لنفسي احضر فيها الاجتماع ، دون ان يعرفني احد لاتمكن من متابعة وفهم عقل اسلوب هذا الرجل بالذات الذي

كثرت حوله الروايات وتناقضت ، فصوّره البعض بأنه بطل بالنسبة لشعبه وعلى كثير من الوعي والفهم ، وصوره البعض بأنه انسان عادي يتحرك من ضمن آلة ضخمة يحركها ويوجهها أسياده الامبرياليون الامريكيون الذين بدأ دورهم ينكشف شيئا فشيئا حتى عند ابسط الناس .

وهكذا فقد دفعني الفضول للتحرك بسرعة ، فاتصلت بأحد اعضاء البلدية من اصدقائي في حينه، وقلت له انني سأحضر بصفتي المعلم «سليم» في مدرسة الحكومة بالقرية «ع» وسأرتدي «ألحطة والعقال» وأجلس بين الناس مستمعا ، فأكد لي عضو المجلس البلدي انه يعتقد بأن احدا لن يدقق «والطاسة ضايعة» ولكنه اشار عليّ بعدم الكلام ...

في الثالثة ظهرا ، وصل موكب موشي ديان ، كنا محشورين في القاعة المتوسطة الحجم ، بعضنا يجلس على كراسي خشبية مرتفعة ، والبعض الاخر على مقاعد خشبية طويلة ، وكنا وكأننا ننتظر محاضراً ..

نظرت من مكاني في الصفوف الخلفية الى الناس ، لم يكن وحده الصمت الذي يخيم عليهم ، كان هناك اكثر من شيء في هذا الجو العابق القائظ ، كان هناك اكثر من الفضول ، وكان هناك كثير من الرفض ، واكثر من كل هذا كان يخيم على ألجو «قلق المبالي» بمصيره ومصير شعبه ومستقبله مع محاولة واضحة بتغليف هذا القلق بموقف «لا مبالي» عبر عنه وترجمه الحاضرون بعدم الوقوف او التحرك عندما دخل موشي ديان للقاعة مخترقا صفوف الجالسين الى المائدة التي أعدت له في الصدر .. وحدهم اعضاء البلدية خفوا لاستقباله ، بموجب طبيعة عملهم ومنصبهم .

موشي ديان ـ المربوع القامة ، صاحب الوجه الاقرب الى الاصفرار ، العظام البارزة الناتئة في وجهه ، عينه المصابة المغطاة بالحجاب الاسود ، يحمل في يده عصا عسكرية قصيرة سوداء .. يقف وراء المائدة يفتعل ابتسامة اقرب منها الى تكشيرة القط البري عندما تقذف له بكسرة الخبز، يقترب منها وكل عضو في جسمه يرتجف بالخوف والحقد على وجوده ..

لاحت هذه الصورة أمامي ظاهرة للعيان وقبل ان يتفوه بكلمة واحدة .. لست أدري ولماذا شعرت بأن هذا «القزم» الذي خاض معركتين ضد العرب هو المنهزم المنكسر على غير ما يفرضه ويقوله الواقع، حاولت ان اكبت مثل هذه المشاعر في نفسي ، وأروضها على تقبل الحقيقة وفهمها ، حاولت صادقا اقول لنفسي انك تفكر بأسلوب صبياني طوبائي لا علاقة له بالحقيقة ولا بالعصر ولا بالواقع المهين الذي اضطرك للمجيء للاستماع الى قائد من

قادة الاحتلال وبالتالي تتلقى منه التعليمات شئت ام ابيت ... ومع ذلك فلم انجح في طرد مثل هذه الاوهام ، وزادت وكبرت في خيالي عندما بدأ يتحدث متعثرا ليقول ما معناه : انه يشكر الموجودين على حضورهم ، وانه من الضروري ان يتعاون الناس مع السلطة «يعني سلطات الاحتلال» وان اسرائيل تريد السلام في المنطقة ولا تريد غير السلام ، ثم تحدث عن الحدود الآمنة ، وقال انه من الضروري ان تعرف اسرائيل حدودها ، وذلك لا يأتي الا عن طريق المفاوضات المباشرة ، مهما تكن هذه الحدود وبعدها يتم التعايش ونصبح جزءا من المنطقة .. ثم قال ما معناه انهم لم يبدأوا الحرب ، ومصر هي التي بدأت بالهجوم الفعلي .. ثم تطرق الى الموضوع الداخلي وعن الاشتباكات التي تحدث والالغام التي تزرع هنا وهناك، وطلب التعاون ، وهدد وتوعد بشكل مبطن ، ثم عاد وطلب من الحضور ان يتقدموا بمطاليبهم الداخلية والحياتية والمعيشية ، وطلب من الحاضرين ان يوجهوا له اي سؤال او اي طلب ...

انهى موشي ديان حديثه .. ومرة اخرى خيم الصمت .. ماذا يمكن ان يقول الناس في مثل هذا الموقف ؟ ما زال كل شيء يكتنفه الغموض ، والحقد على الاحتلال وعلى كل شيء يزداد في صدور الناس يوما عن يوم.. ومع ذلك فقد كان لا بد ان يقال شيء ، لا بد ان يكسر هذا الصمت .

ومن مكاني السحيق الذي بدأت أحس انه يتسع ويتسع ويبعد عن القاعة ومن فيها ، ومن خلال شعوري بالغثيان والعجز ، والقرف من كل شيء ، رأيت يدي ترتفع مستأذنا بالكلام .. دوى صوتي الاجوف في القاعة الواجمة ، «هل تسمح يا سيد ديان» والتفتت الرؤوس الواجمة على ايقاع صوتي في حركة بطيئة تثير الضحك في غير هذا الموقف .. وشعر دايان وكان هذا الصمت انقذه هو ايضا من ارتباكه ومن جو الصمت الكثيف . وقال : «تفضل تفضل ما اسمك وماذا تشتغل» ..

وقفت في مكاني ، وكان يجب ان أكون واثقا من نفسي ، قلت له : «انا معلم في مدرسة قروية في المنطقة واسمي «سليم» احببت ان أحضر للسماع اليك شخصيا ، واحب بناء على طلبك بتوجيه اي سؤال ، ان اسألك بصراحة ووضوح متى ستخرجون من بلادنا» ؟

ابتسم موشي دايان ، وكان بحاجة أيضا لان يتماسك ويضبط أعصابه، وقال : اشكرك على هذه الصراحة وهذا سؤال سبق وأجبت عليه بشكل غير مباشر في هذه الجلسة ، ومع ذلك فسأكرره من اجل الفائدة «نحن باقون

هنا بالشكل الحالي حتى يتم صلح حقيقي بيننا وبينكم ثم نعيش معكم بسلام ونصبح جزءا سياسيا واقتصاديا ومعنويا من المنطقة .. ثم يجب تثبيت حدود آمنة لنا» .

قلت : تقول كتبكم ، وبعض فلاسفتكم ، كما هو منقوش على كنيسكم ان حدودكم من النيل الى الفرات ، وبعد ولو فرضنا جدلا ان هذا غير صحيح ، فهذه الارض التي اقمتم عليها دولة ، وهذه الارض التي تحتلونها اليوم بالقوة ، ليست ملككم ، هذه الارض للفلسطينيين العرب الذين سكنوها منذ الفي سنة ، واعتقد ان هذا ليس زمنا قصيرا ونحن نشعر ونلمس انكم اغتصبتم هذه الارض على مراحل ، وبدأنا نحس ان ما جاء في كتبكم ، وعلى لسان فلاسفتكم حول حدود ارض ما تسمونه باسرائيل الكبرى صحيح ، كما ان دولتكم لم تحدد بل رفضتم عبر العشرين سنة الاخيرة ان تعلنوا عن حدودها ؟؟ واعتقد ان هذا الكلام الذي اقوله ليس غريبا عليك ، لو فتحت رأس كل شخص من الجالسين الصامتين لوجدت فيه نفس الخواطر والرفض للاحتلال ، فنحن الفلسطينيون وقع علينا ظلم منكم ، وبغض النظر عن انتصاراتكم العسكرية فهل تستطيع ان تبرر لي أخلاقيا وقانونيا كيف يحق لكم اقامة دولة على حساب واشلاء مليوني انسان، ما زال نصفهم يعيش لاجئا في الخارج ، والنصف الثاني تحت احتلالكم الآني .. انني اعلم جيدا انني أخاطبك الان من مركز الضعف والعجز ولكنني فقط من اجل ان اسمع رأيك بوضوح وصراحة اطلب منك ان تجيب على سؤالي البسيط ، وهو حق لي ان اسأله طالما انت اذنت بالاسئلة ..

كنت اعرف ان هذا الكلام لا يجدي ولا يفيد ، ولا ينتج عنه اي شيء عملي ، ولكنني احببت ان اراه محرجا .. احببت ان أقلل من شأنه امام بعض افراد شعبنا المسكين المغلوب على امره ، احببت ان اراه مرتبكا ، لانني مؤمن ان مواجهة الناس بالحقيقة في ابسط الامور وأكبرها ، تربكهم ، وتفقدهم توازنهم ، وتدفعهم لان يقولوا كل شيء وتدفعهم لان يستفزوا .

ومع ذلك فلم يستفز موشي دايان ، انه يحفظ الدرس جيدا ويبدو ان الاضطهاد والنصر قد علمه درسا كبيرا ، وراح يردد الاسطوانة نفسها ، مبتدئا بالحق «التاريخي المزيف» ومنتهيا برغبتهم الاكيدة بالسلام ، وطبعا لم ينس أن يستعرض عضلاته العسكرية ، ولم ينس ان يوحي بالتناقض العربي والفلسطيني ، واننا ضحايا العرب ، ولم ينس ايضا وبأسلوب

رخيص مبطن ان يجرح كبرياء كل الجالسين ، وختم حديثه بقوله : «انت يا سيد سليم شاب مثالي ، ولا تعرف حقائق الحياة السياسية ، تتكلم عن الاخلاق والقانون وتطلب منا ان نبرر وجودنا ، انني انصحك ان تبحث لك عن بداية جديدة من ضمن الواقع ، نعم من ضمن الواقع قد تكون بعدها مفيدا ، ومع ذلك انا أرحب بالنقاش وبالحديث وأحب ان اراك أكثر من مرة لماذا لا تقوم باتصال بنا ومن خلال الحاكم العسكري للمدينة . وتحول للحاكم العسكري وقال له : «استدعه وافسح له المجال لمقابلتي في اي وقت يشاء» ..

كان وجه موشي دايان قد أربد ، وظهرت عليه رغم أنفه ملامح الغدر والاستياء ، وكان لا بد ان اغطي الموقف فقلت : «انني أرحب بالزيارة وسأفعل خلال يومين» . كان لا بد من تغطية موقفي قبل ان يبدأ التساؤل بين الموجودين عن حقيقتي وحتى اتدبر امري ، وبقيت في مكاني بين الناس وهو يتحرك للانصراف ، وعندما اقترب من ناحيتي توقف وصافحني ، وقال «هل ستحضر» قلت «بالطبع سأفعل» وبالفعل رآني موشي دايان في اكثر من شكل واستمعت اليه في اكثر من مكان واكثر من جلسة ، ولكنه لم يعرفني ولن يعرفني ابدا ...

٢٨ آب ١٩٦٧ :

جاء صاحبي عضو المجلس البلدي بعد الحوار الذي دار مع موشي دايان في مبنى البلدية ليخبرني بأن الحاكم طلب منه تفاصيل عني ولم يعرف ماذا يقول له واكتفى بالمعلومات التي قدمتها انا عن نفسي في الاجتماع، ونصحني بالسفر ، او الاختفاء فرفضت وطلبت منه ان يتحمل مسؤوليته في حماية اي مواطن وان يصر على انكار معرفته بي .

كنت مصمما ان ادخل في زيارة الى الوطن المحتل عام ١٩٤٨ ، كنت اريد ان اشاهد مدنه وشبابي ، كنت اريد ان ارى مسقط رأسي ، وقراه، وكنت اريد ان اشاهد ملاعب طفولتي والبيت الذي نشأت فيه ، كنت اريد ان اقيم هناك اذا تمكنت لاعرف وأتعلم قبل ان تفاجئني الايام بحادث ، او باعتقال او بانكشاف لهويتي ، ومع ذلك فقد كنت اشعر انني غطيت نفسي في اجتماع البلدية ولن يبحث عني ولن يسأل بالشكل الذي حاول ان

يضخمه عضو المجلس صديقي الوطني الذي اضطر بعد ذلك بأشهر لمغادرة البلاد ...

كيف ادخل الارض المحتلة .. انا خارج قطاع القدس الذي اصبح السفر اليه محرجا ومتعبا .. وحتى لو وصلت كما يفعل غيري بأسلوب او بآخر فكيف العمل للوصول الى الرملة ويافا وعكا ، وصفد ، وكل هذه المناطق التي حرمت منها في العشرين سنة الماضية ، كيف سأدخل وأنا من القطاع غير المسموح له ان يدخل الا باذن خاص وبمعاملة خاصة ... كيف سأفعل ومع ذلك فقد تحققت الامنية ، ودخلت وشاهدت بحر يافا لاول مرة بعد عشرين عاما .. فبكيت وبكيت .. شاهدت المدينة الجبارة التي تعانقت بيوتها والتصقت بعضها ببعض بفعل الشيخوخة كأنما لتحمي نفسها من الغدر والمحتلين المقيمين بها .. يافا اصبحت وكأنها مدينة الاطلال .. كيف دخلت الى الوطن المحتل وماذا رأيت في الدولة التي يسمونها اسرائيل وماذا تعلمت .. هذا ما سأذكره في بقية مذكراتي ...

***

١٠ ايلول ١٩٦٧ :

كانت مفاجأة كبرى لي عندما دخل «عمي الشيخ» ـ وهو ولي امرنا والمسؤول عن ادارة املاكنا القليلة في مدينة القدس ـ صباح هذا اليوم ليخبرني بأنه يريدني انا وشقيقتي ان نعرف ما لنا وما علينا ونتسلم هذه الاملاك ، مع العلم بان «عمي الشيخ» قد استثمر طيلة العشرين سنة الماضية هذه الاملاك المتواضعة في القدس العربية دون أن نحاسبه او نطالبه بشيء، ولعل الاحتلال المفاجيء وقسوة ما شاهده من اهانة للانسان ، وتحقير لكل شيء بما فيها الاماكن المقدسة ، دفعه لان يريح ضميره فيأتي لتسليمنا ما نملك في هذه الظروف المضحكة المبكية .. ولما كنت انا وشقيقتي لسنا من سكان المدينة الاصليين ـ وان كنا قد مكثنا فيها طويلا وعلى امتداد اكثر من فترة زمنية ـ فقد رحبت بالفكرة ، خاصة وانه اخبرني انه سجل اسماءنا

بين مواطني اهل القدس ، وكانت السلطات الاسرائيلية المحتلة قد قامت بعملية فرز وطلبت من المواطنين ان يحددوا اماكن سكناهم وخاصة فيما يتعلق بالقدس قبل ان تقوم هذه السلطات بعمليات الاحصاء والحصر المتعددة التي قامت بها ..

أخبرني «عمي الشيخ» انه سجلني من سكان القدس الشرقية (القطاع العربي) وأكد لي ان بوسعي ان اقيم معه هناك . كان يتكلم معي راجيا ان أفعل ذلك ، بينما كان خيالي شاردا فيما هو اكبر وأهم من كل ذلك ، كنت اتذكر كيف ، ولايام خلت ، كنت أناقش رغبتي هذه مع بعض المقربين من الزملاء ، لاحقق امنيتي في الحركة ، وعلى قدر ما استطيع فوق الارض والدنيا التي غابت عني عشرين عاما والتي اصبحت اليوم احس انني لا اعرف عنها وما حدث فيها وفوقها بالقدر الذي يجب ان أعرفه وأدركه .

كنت أفكر في كل هذا ، بينما كان «عمي الشيخ» يقول لي : «انت مسجل في القدس من الشهر الاول ، فتوكل على الله واعطني وعدا بأنك ستأتي»..

لم تكن اسرائيل قد اعلنت بعد ، عن أتخاذ اي اجراء بشأن القدس ، ولم تكن اذاعتها قد نقلت الخبر الذي اذاعته في الثالث عشر من كانون الثاني عام ١٩٦٨ حول استيلائها على ثلاثمائة هكتار من الارض في القدس العربية لاسكان وتوطين سبعة آلاف عائلة صهيونية فيها في الحزام الذي بدأ بحي «الشيخ جراح» الى جبل «المكبر» ولم تكن بعد قد حصلت عمليات السلب والنهب والتهويد وتغيير معالم المدينة ، كما حدث فيما بعد بأحقر الوسائل والسبل . ولست اذكر ذلك لان مثل هذا الانتهاك كان يمكن ان يغير من قراري في السكنى هناك ، ولكن لادلل فقط على تفكير الاغلبية الساحقة من شعبنا الطيب «بما فيهم انا» وبالرغم من تجربتي المرة القاسية الهامة التي خضتها في الاشهر الاربعة الاولى من الاحتلال ، وهي اننا كنا نفكر ونعتقد بأنه حتى احتلال القدس ربما انتهى في خلال اشهر قليلة على الاكثر .. حتى القدس !!

تسلمت كافة الاوراق الخاصة المتعلقة باقامتي الجديدة ، وحملت ما خف من متاعي ، وودعت بعض زملائي على امل ان اراهم متى تسنح الظروف ، وتوجهت في سيارة ركاب عادية اقطع الثلاثين ميلا التي تفصلني عن مدينة القدس العربية وكانت هي المرة الاولى التي أزورها بعد الاحتلال..

كانت الضفة الغربية بمختلف مدنها ، ما تزال تحتفظ بطابعها السكاني العربي وبالرغم من زيارات الصهاينة المتكررة لها بمناسبة وبغير مناسبة ،

بالقياس لمدينة القدس العربية ، التي شعرت وللوهلة الاولى ان ثمة شيئا جديدا مسّها ، فغير من هدوئها ووقارها وروحها، مئات بل آلاف مؤلفة من ابناء اسرائيل في كل مكان ، لاسيما في البلدة القديمة داخل سور القدس العريق ، السور الذي عجزت اسرائيل وغير اسرائيل عن اقتحامه في اكثر من مناسبة ، فسلم اليوم لها تسليما ، بكل ما يضم ويحتوي من تراث وحضارة ومقدسات ، كانوا يروحون ويسرحون في هذه البقعة المقدسة بالذات ، وكأنهم يعلنون انتصارهم على كل قيمنا الروحية والحضارية ، كانوا يسيرون بعنجهية واضحة ، يستمرؤون ان تطأ أقدامهم اشرف الاماكن المقدسة ، يأخذون الصور في اوضاع شاذة ، ويقهقهون ، ويشربون السجائر وحتى الخمر في باحات المساجد والكنائس ، وكان من الواضح ان ذلك يمارس عن سابق اصرار وتصور ، حتى ان الاب «روك» وهو رجل دين معروف حاول ان يثني بعضهم عن التدخين في القيامة فصفعوه ، ولكنه صفعهم ورد لهم الكيل كيلين .

رأيت كل هذا وأنا اتجول في اليوم الاول في مدينة القدس ، من باب الساهرة ، عبر شارع صلاح الدين ، مرورا بالبلدة القديمة وانتهاء بالملعب البلدي حي الشيخ جراح حيث كان مقدرا لي ان اقيم ، لا يفصلني عن القدس الصهيونية (القسم الغربي) المحتل سنة ١٩٤٨ سوى حوالي نصف الميل او اقل ، فبين القدسين ، الجديدة والقديمة كان يعيش عمي الشيخ وكنت مضطرا للسكنى عنده ، في بيته الواسع العريض المترف ...

كانت السيارات في القدس قد أعطيت ارقاما اسرائيلية حمراء اللون كسكان القدس الاسرائيلية تماما ، خلافا لارقام السيارات الزرقاء التي اعطيت لباقي سكان الضفة الغربية . وحده هذا المعنى كان يجب ان يكشف نوايا اسرائيل المبيتة نحو القدس والتي عادت فيما بعد لتشمل كل شبر في الضفة الغربية ، والارض العربية المحتلة ، وكانت سياسة الدولة الناعمة واضحة تجاه اهل القدس في القضايا الشكلية التي اظهرت حسن النية في الشهرين الاول والثاني للاحتلال ، بحيث كانوا مثلا يسمحون لاصحاب السيارات الخاصة ذات الرقم الاحمر الاسرائيلي أن تزور وتسافر الى معظم أرجاء الوطن المحتل عام ١٩٤٨ بدون مضايقة او تفتيش ..

كانت هذه فرصتي التي انتظرها وأحلم بها ، وبدأت ذهنيا ونفسيا استعد لدخول فلسطين التي غبت عنها العشرين سنة الماضية بطولها .

١٨ ايلول ١٩٦٧ :

واخيرا .. وفجر صباح مشرق تحركت سيارة صديقي «ع» ذات الرقم الاحمر الاسرائيلي ، الى القدس اليهودية ... كانت هذه الدقائق المثيرة التي تربط بين الماضي والحاضر بالممارسة ، هي من اكثر دقائق ولحظات عمري اثارة وفضولا وحزنا وفرحا .. دقائق وأكون هناك بعد ان أزيلت السدود الحجرية التي بنتها الهزيمة العربية عام ١٩٤٨ لتجزيء القدس وتجعل منها قدسين ، ولتمحو وتطمس اسم فلسطين ، وتعطيها اسم الضفة الغربية ، هذه المعاني كلها قفزت الى رأسي فجأة بعد أن كاد الواحد ينساها في غمرة المعركة ضد الصهيونية ، من وراء الحدود ، في الوطن العربي الكبير ...

اجل .. انا داخل الى فلسطين ، وعائد اليها ، وفي غمرة النشـوة المشوبة بكل آلام الهزيمة والفشل ورغم الاحتلال الاسرائيلي الجديد للضفة الغربية ، ومن خلال انفعالاتي المتباينة المتناقضة ، وعمق الجرح الذي يسيل من وجداني ، في لحظات الذهول هذه كلها ، احسست بالفعل انني ادخل وأعود الى فلسطين بعد غياب طال عشرين عاما ، كان احساسي هو احساس المهاجر الذي يعود الى وطنه ، نسيت للحظات خاطفة ، الاحتلال ، والعدوان والصهيونية والامبريالية .. وشعرت انني اعود الى فلسطين .. كـل اشواق وكبت وحرمان العشرين سنة الماضية تجمع في هذه اللحظات، كنت فقط أريد أن ارى القدس والرملة واللد ويافا وحيفا وعكا ... كنت اريد ان اصل الى هناك ، وبعدها فليكن ما يكون ...

هذه اللحظات الغريبة النادرة ، لا يفهمها ولا يعرفها الا من عاناهـا وعاشها ، انها لحظات مجنونة مسعورة تولد في جو مرضي ونفسي محموم في ذهن انسان حاول ان يناضل عشرين عاما من اجل هذا اليوم ينتزعـه بالنصر وبالسلاح فيدخل بحره فاتحا مزهوا ، مستردا لحقه ووطنه وداره المسلوبة ، واذا به ومن خلال منطق ووضع يقف تماما على رأسه يحقق نفس الرغبة ونفس الحلم ونفس الامنية ...

لم اكن املك التفكير السوي في هذه اللحظات القصيرة التي تفصلني عن فلسطين ، وكدت أنسى ان العودة الى فلسطين ليست أمنية في حد ذاتها بقدر ما هي رغبة في استرداد حق ووطن ضاع ، اغتصبه واستباحه اعداء أمتي الصهاينة ...

كانت «عمارة النوتردام» وحدها التي تقفز بين عيني ، حـي المصرارة

وحده الذي يناديني ، «والبقعة والقطمون والطالبية» تصرخ بي وتهتف في أذني وتناديني وتدعوني لزيارتها والمرور بها .. هذه اللحظات لا يمكن الا تسجيلها في مذكراتي التي أدونها من اجل المعرفة والعبرة وأنا اعيش اليوم داخل الوطن المحتل ، فمثل هذه اللحظات وغيرها عبر كل شارع وفي كل قرية وفي كل مدينة ، وعند كل جدول ونهر ، وعند كل لقاء مع البحر في الفردوس الضائع ، هي الخلفية الانسانية الوجدانية الوطنية لهذه المذكرات التي ستركز فيما بعد على نقل ودراسة وتصوير المجتمع بالرقم والخبر الصحيح والوثائق .

١٩ ايلول ١٩٦٧ :

قال صديقي «ع» صاحب السيارة وقد افقنا في الصباح بعد ليلة مضنية حافلة بالكوابيس والهواجس عند احد معارفنا القدامى ، قال : هل تسمح قبل ان نتوجه نحو الساحل ان نذهب لزيارة بيت لنا كنا نقيم فيه في احد الضواحي قبل عشرين عاما .. رافقته وانطلقنا بالسيارة الى المكان الذي يقع فيه البيت ، كان الصمت يلفنا ونحن نتجه نحوه ، باستثناء بعض العبارات التي كانت تنطلق من أحدنا بين الفينة والفينة ، «كل شيء على ما هو» «كل شيء على حطت يدك» ، لا تغيير ، لا تبديل ، نفس الشوارع، والازقة والممرات ، ولكن على اقبح واكثر قذارة واهمالا .. على السطح كانت تبدو الامور في هذه الاحياء وغيرها من الاماكن وكأن شيئا لم يحدث ولم يتغير ، ولكن سرعان ما سيظهر ان الذي حدث وتغير بفعل الاحتلال هو اكبر من الاحتلال نفسه ، وهو الشيء المخيف المقلق ، يرتبط ويتعلق ويتجسد بعقلية ونفسية شعب تجلت فيه عقد الاضطهاد والنقص الى عقد تفوق واستعلاء وغرور يرتكب من خلالها ابشع وأخطر الحماقات التي لم يعرفها تاريخ البشرية بعد ، وسيظهر ذلك في سياق المذكرات ..

قرع صاحبي باب البيت ، مرة واثنتين وثلاثا .. وانشق الباب عن رجل ملتح متقدم في السن بعض الشيء .. سألنا عما نريد ؟ وفي شبه استيحاء قال صاحبي : «هذا البيت لنا وأحببت ان ازوره وأتعرف على من يسكن فيه» قالها بأدب شديد لم انتظر معها ردة الفعل العنيفة من صاحب البيت الذي صرخ باللغة الانكليزية : «ماذا تقول ؟ هذا البيت لك ؟ ألا تخجل؟ لقد مر عليّ وأنا اسكنه مع عائلتي ما يزيد على السبع سنوات ، هذه

وقاحة ، ولن اسمح لك حتى بالدخول» . والتفت ينادي امرأته يستعديها علينا ويقول متعجبا «اسمعي يا سارة يقول هذا السيد الواقف هنا انه يملك هذا البيت ويريد زيارته والتعرف علينا ، أليس هذا مضحكا وعجيبا ؟» وراح يقهقه ملء صوته وكأنه يريد ان ينادي الجيران سكان الحي ليستشهد بهم او ليسخر منا امامهم ..

كانت السيدة زوجته على ما يبدو أعقل منه ، تتوقع مثل هذه الزيارات التي لفتت السلطات اليها الانتباه باللغة العبرية وتوقعتها وأعطت حولها تعليمات معينة وتوجيهات خاصة .. قالت المرأة «كان هذا البيت لكم .. اما اليوم فهو لنا وسيبقى لنا ، وقد حصلنا عليه بالجهد والدم والدموع والعذاب ، فالرجاء ان تذهبوا مع الاسف ولا داعي لمزيد من المتاعب مع زوجي». وغمزت عليه بعينها، شأنكل الزوجات عندما تلوحلهن المناسبة.. كانت هذه فرصة لان اسألها بأدب «وهل انت ايتها السيدة قانعة بما تقولين ؟» قالت «اسمع انا لا أفهم في السياسة ، انا احضروني الى هنا وسأموت هنا ، سأدافع عن هذا البيت» وكانت نبرة صوتها قد ارتفعت مما جعل احد ابنائها الذي لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره يخرج من الغرفة الداخلية ليسمع العبارة الاخيرة من امه . التفت اليها دون ان ينظر حتى لنا وقال : «ماذا يفعل هؤلاء العرب الوسخون هنا وفي هذا البيت» . قالها بلهجة انكليزية جيدة .. قال صاحبي : «لا شيء ، لا شيء مطلقا مجرد سوء فهم بسيط حول «وجودنا» او وجودكم في هذه الدار لا تؤاخذونا آسفين جدا » ...

خرجنا معتذرين وركبنا السيارة ، بصمت ودون ان ننبس ببنت شفة، كانت شتيمة الغلام لنا ، «ماذا يفعل هؤلاء العرب الوسخون هنا» تطن وترن وتصرخ في آذاننا .. الجملة التاريخية التي سمعها وعاش عليها هؤلاء الناس في كل مكان ذهبوا اليه ، باستثناء الوطن العربي ، يكررونها ويقذفون بها في وجوهنا .. «اليهودي القذر» يلقي في وجوهنا المسبة التي طاردته في كل مكان عبر التاريخ والبلدان ... وسارت السيارة بنا نحو الساحل .

لست ادري وأنا أغادر مشارف القدس الى مدينة الرملة لماذا تذكرت «دير ياسين» التي اصبحت أثرا بعد عين ، والتي اصبح يحل مكانها مستشفى للامراض العقلية يدعى «بيت شاوول» لعلني تذكرت دير ياسين لانها من قرى القدس ، او بسبب الحالة النفسية الرهيبة التي وضعني فيها

هذا الغلام الذي هتف في وجوهنا بأننا «عرب وسخون» . تذكرت الغطرسة وتذكرت الدماء ، فتذكرت مذبحة «دير ياسين» في التاسع من شهر نيسان سنة ١٩٤٨ وقبل حوالي الشهر من تأسيس وقيام دولتهم اللاشرعية ، تذكرت المائتي قتيل بين طفل وامرأة ورجل ، وتذكرت الموكب الملطخ بالدماء مما تبقى منهم والذي ساروا به عبر شوارع القدس ليعرضوه على جماهيرهم المتعطشة للدماء ، وتذكرت انه بعد اربعة ايام من المجزرة التي قامت بها عصابتا « شيترن زفاي لومي » اعترف بعدها قائد موقع الهاغناه في القدس ان اهل قرية «دير ياسين» الوادعة لم يشتركوا حتى بعمليات الهجوم والقتال ضد القدس التي كان يسكن اليهود في القسم الغربي منها آنذاك ...

وتابعت السيارة مسيرتها نحو الساحل ، وفي مدينة الرملة التي ما زال للنبي صالح ومقبرته وجامعه الكثير من البقايا ، توقفت سيارتنا لنطل على المدينة العربية التي ما زال يسكنها حوالي الثلاثة آلاف عربي فقط ... «كل شيء على ما هو» باستثناء الشارع العام المؤدي الى يافا أضيفت له بعض التحسينات المظهرية ، اما المدينة من الداخل فقد عراها الهرم ، شوارعها تشققت بالهجران وبالاهمال ، كل معالم المدينة توحي بأن المدينة ستنهار بعضها على بعض لكثرة ما أهملت وتركت القذارات في شوارعها ، الجناح الغربي من المدينة تقيم فيه عائلات يهودية شرقية تكرس بوضوح وجلاء التفرقة الواضحة بين اليهود الشرقيين واليهود الذين جاءوا من اوروبا ، رأينا بعض البيوت التي نعرفها على حالها ، شبابيكها ، ونوافذها وأبوابها كما تركت بالضبط مهملة كحدائقها التي لم تمس منذ عشرين سنة .. وضع محزن وغريب ...

تسكعنا في أحياء الرملة ، ولم اكن بعد قد وضعت خطة اتصال بأحد ، ولا اعرف احدا هناك بعد هذا الغياب ، على الرغم انني كنت اعرف كل شبر فيها وكل رجل ، ومع ذلك فقد جازفت بالسؤال والتحدث الى اول عربي توسمت فيه الخير ، كان كهلا متقدما في السن ، وأخبرناه اننا من القدس وفي زيارة لبلادنا ، فاطمأن الرجل ، ورحب بنا بالرغم من اطمئنانه بتحفظ .. لم يدعنا الى بيته ولكنه تسكع معنا .. قال : مثلما تشاهدون كل شيء هنا على حاله وأسوأ ، نحن ننتظر ، انتظرنا عشرين عاما وسننتظر ، «والكل في الهوا سوا» ..

سألناه عن أموره وعن مشاكل الناس ، ومن يضبط العلاقات ويسير

الامور في المدينة ، وهنا تحفظ الرجل وقال : انا رجل كبير لا اعمل في السياسة ولا اعرف ، اولادي يعرفون ، وأسمعهم يقولون منذ زمن ان هناك ضابطا مسؤولا عن الشؤون العربية في المدينة يدعى الخواجه «جبرائيل دهان» ولاحت على شفتيه ابتسامة غامضة .. وعادت الذاكرة بي وبسرعة لاذكر هذا الاسم الذي ارتبط بمجزرة «كفر قاسم» المشهورة ، هذا الجزار الذي حكم عليه سبعة عشر عاما بتهمة ذبح ثلاثة وأربعين انسانا بين رجل وامرأة وطفل في قرية كفر قاسم في ١٦ تشرين الثاني عام ١٩٥٦ ، هذا الضابط الجزار زميل «ميلنكي» المسؤول الاول عن المجزرة .

انها سخرية القدر بعينه أن يصبح جبرائيل دهان الصهيوني الاسرائيلي القاتل وبطل مجزرة كفر قاسم مسؤولا عن الشؤون العربية والمواطنين العرب في الرملة ...

نظرنا الى الرجل ، ونظر الينا ، وفهم اننا أدركنا كل شيء .. وعدناه بزيارة الرملة مرة أخرى ، وتحركت السيارة نحو يافا .. وليافا ذكريات عزيزة عند كل فلسطيني ، رأيت فيها الكثير وسمعت الكثير وعرفت الكثير وتعرفت على غير انتظار الى الكثيرين وسأنقل ذلك او بعضه في العدد المقبل ..



بحر «يافا»
يبكي في مدينة النضال .. والاطلال

١٩ ايلول ١٩٦٧ :

عندما كنت انام بعد هزيمة عام ١٩٤٨ ، كنت استيقظ من نومي مذعوراً في السنوات الاولى للنكبة من جراء كوابيس وأحلام كانت تعذبني باستمرار وتذكرني بالمعارك المزيفة ، والاستسلام ، والمسرحية التي مثلت على ارض فلسطين ، كما كانت هذه الكوابيس تطاردني فتصور لي الذبح والقتل الجماعي والتشريد الذي حدث لبني قومي وهم يطردون من بلادهم فلسطين . لقد شاهدت كل ذلك بعيني في مطلع شبابي الاول عندما اضطررت للانسحاب مع غيري من مدينة يافا في الثاني عشر من شهر ايار

عام ١٩٤٨ .

وعلى الرغم من انني لست من سكان مدينة يافا فلقد كنت أقيم فيها في هذه الفترة بالذات لاسباب تتعلق بطبيعة عملي في الحقل العام ... وهكذا خرجت من يافا مطرودا ، وطارتني كوابيس واحلام هذه المرحلة على امتداد عشرين عاما ، ولكن الكوابيس كانت تتحول في كثير من الحالات ومع الزمن الى احلام وردية ، برتقالية ، خضراء، وصفراء ، وحمراء، ملونة ومزركشة، بألوان الطريق الطويل بين مدينة الرملة ومدينة يافا ... تركزت كل احلامي الوردية في هذه الطريق الى مدينة يافا ، تارة على دراجة اطفال ، وطورا في سيارة والدي السوداء ...

وها انا اليوم أعبر هذه الطريق ، ليس على جناح الحلم والكابوس ولكن على جناح الحقيقة ، في سيارة صديقي «ع» التي كانت تتجه بسرعة الى مدينة يافا عبر الطريق المتشحة بالسواد ، وبيارات البرتقال والموز التي لا تعبق بالاريج ، وكأنها تحس بالعدوان والاحتلال والاثم ، اكثر بكثير مما يحس بعض القادة والمسؤولين عن هذه الامة عبر العشرين سنة الماضية ...

كانت السيارة تتقدم نحو «يافا» وانا اتساءل بيني وبين نفسي عن سبب كل هذا الحب والشوق الذي أحسه نحو مدينة يافا ، وفي الحقيقة ان مشاعري هي ترجمة صادقة لمشاعر كل أهل فلسطين نحو هذه المدينة بالذات ... قد يكون هناك اسباب كثيرة ومختلفة عند الواحد والاخر ، ولكن قد يكون السبب المشترك لهذه المشاعر ما كانت تمثله وتجسده مدينة يافا كقلعة مضادة تقف في وجه المدينة الصهيونية المجاورة والملاصقة « تل ابيب » التي تتجمع فيها كل طاقات ومؤامرات الحركة الصهيونية ... كان الصراع رهيبا وحادا بين المدينتين المتلاصقتين المتجاورتين منذ ان نشأت «تل أبيب» وأخذت بالانتشار والتوسع ، كان سكان مدينة يافا يحسون بهذا الخطر ويدركونه بالوعي في كثير من الحالات ، وباللاوعي والغريزة في معظم الحالات ، فلقد كان التوجيه مبعثرا ، وخاضعا لظروف وأسباب عديدة بين الثلاثينيات وأواخر الاربعينيات ، تبدأ هذه الظروف بالاحتلال البريطاني وتنتهي في عقل المواطن الفلسطيني الذي لم يكن بالفعل ليصدق ان الخطر قد يصل الى الحد الذي يطرد فيه من بلاده وينتصر عليه اليهود « أولاد الميتة » . كان هذا الشعور بعدم وجود الخطر الحقيقي من الصهيونية ، والاستهتار بقدرات الصهاينة من وراءهم ، عاملا كبيرا وسببا بارزا ، من أسباب الهزيمة بالرغم من كفاح الشعب المجيد وتضحياته منذ عام ١٩١٩

وحتى قبل ذلك ...

الا ان الاطفال والاولاد ـ وهذه ظاهرة احب تسجيلها وانا في صدد الحديث عن مدينة يافا الحبيبة ـ كانوا يرفضون هذا الجوار وهذا التوسع على حساب مدينتهم وشاطئهم الجميل ، كان أولاد «حي المنشية» و «حي العجمي» و «حي النزهة» وغيرها من الاحياء يرفضون بالغريزة كل مظاهر الوجود الصهيوني ، واعتقد ان رجال وشباب يافا اليوم الذين يعيشون في المنفى وهم اطفال وأولاد الامس يذكرون اليوم جيدا ، المعارك التي كانت تدور رحاها بين الاحياء المختلفة المتشابكة في المدينتين ، ولعلهم يذكرون اليوم ان كل واحد منهم اشترك في اكثر من معركة او مناوشة ، فضرب وضرب « بكسر الراء » ولكن حالات الانتصار دائما كانت في مصلحة اولاد واطفال العرب وربما كان بسبب الاحساس بالتفوق النفسي ، والشعور بالخطر من هؤلاء الاجانب الجدد الذين يختلفون كثيرا عن اليهود الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون معهم حتى في مدينة يافا بدون تعصب وبدون اي محاولة لاضطهادهم ، وعلى العكس تماما كان يسودهم جو من الالفة والمحبة والتعاون ، هذه المشاعر ، وهذا الاحساس الذي بدأ ينقلب في مطلع الثلاثينيات الى شعور يشوبه بعض الوعي عند قطاعات مختلفة من ابناء الشعب الفلسطيني .

كان لا بد ان تصل السيارة الى مدينة يافا ... أحسست لفرط انفعالي ـ وبسبب كل ما ذكرت انني دخلت الى كل فلسطين أضمها الى صدري وأستعيدها من الغاصب المعتدي ... طلبت الى صديقي «ع» ان يتوجه فورا الى البحر ، كان البحر هو أول شيء أريد أن أراه وألمسه ، فالبحر وبالنسبة للذين كان قدرهم ان يقطنوا في المناطق الجبلية وهي بقية ما تبقى من فلسطين بعد هزيمة ١٩٤٨ ، يمثل شوقا خاصا ، وحنينا عجيبا عبر عنه شعراء المرحلة أروع وأخصب تعبير ... الشاطىء ، والساحل... والفردوس المفقود ، والبحر السليب وغيره وغيره من التعابير ، وتحضرني هنا أبيات لشاعر فلسطيني تمثل قمة الحنين والعجز من قصيدة طويلة كان يتداولها الناس بعد وقبل النكبة الاولى والثانية ... ومنها :

« أيها الشاطىء الجريح بصدري   لا ترفرف بالعجز في مقلتيا
لست اقوى على المجيء هوانا   افتقوى على المجيء اليّا !!؟

ومنها : ـ

يا يدي المديدتين اليه   ناء عبء الحنين بين يديا

فكأنـي وقـد بكيت عليــه   في سعير الحرمـان ابكي عليا !

وصلنا الى «شاطىء الشباب» في بحر يافا وكم ذهلنا ونحن نراه يكاد يكون خاويا الا من بضعة كراس منثورة هنا وهناك ، ومقهى قديم يجثم في ركن ، تتحرك فيه بعض الاشباح .. كان الشاطيء يضم مجموعة من الشلل لم يسهل التأكد من هويتها الا اذا اقتربت منهـا ، وكانت الشمس تـأذن بالمغيب ... كل شيء هادىء وشاحب وكئيب ، الا البحر الذي كان يرغي ويزبد ويصخب بشكل يلفت النظر ، وغير مألوف ... خيل الي ان البحـر يرفضنا ، يرفض مجيئنا ، وكأن أمواجه تبصق في وجوهنـا احتقـارا واستهانة وخفة بنا ... عراني شعور كئيب ، اصطدم بكل الحنين الـذي يجيش بصدري للبحر ، وشعرت بضيق وانا أسير نحوه لامسح وجهي بمائه المالح المر ، وابكي ... وابكي ... وابكي ...

جلسنا على الكراسي المنثورة هنا وهناك ، وبجانب شلة سرعان مـا سمعناها تتحدث بالعربية ، وتختلس النظر نحونا بفضول وتحفـظ ... وكنت فقط انتظر المناسبة لافتعل أية مناسبة للحديث مع الشلة ، عندمـا رأيت احدهم يحدق بي وبزميلي «ع» . بادلته النظرات فلم يلوح لي وجهه المجعد وشعره الابيض بشيء، كل شيء بوجهه كان ميتا خلا عينيه، تضايقت منهما ومن فضولهما ، بالرغم من فضولي .. لم يتركنـي أتأمـل الموقف ، ضحك بصوت مرتفع ، ورنت باذني ضحكته المشهورة المستهترة ، وكان قـد بدأ يمشي نحونا ... قال : فلان ألست فلانا ؟ ... قلت : نعم ... نعم يا «فايز» وكان تيارا من الكهرباء والحياة انتقل الى الشلة ، بـين منذهـل ومندهش ، ومستفسر ومتحرك نحونا ... وتم التعرف والعنـاق ... والسلامات ... والسلامات ...

لا بد من وصف «فايز» بكلمات ، مع ان الحديث عن فايز وفي غير هـذا المجال يحتاج الى مجلدات ... «فايز» هو احد ابناء العائـلات المعروفة في يافا ، من الذين رفضوا الخروج وآثر البقاء حيث هو ، والذين عرفوا فايز في الماضي يعرفون ايضا ان الموضوع بالنسبة له موضوع مزاج لا اكثـر ولا أقل ، فـ «فايز» ظاهرة خاصة وفريدة من نوعها ، قلما تجد مثلها واحدا بين الالاف أو الملايين في الوطن العربي، وخاصة قبل النكبة وقبل ان تتبلور المذاهب الوجودية في العالم ... و «فايز» هذا فيلسوف وكاتب وصيدلي ومهتم بعلم الفلك ، يجمع بين الاديب والعالم ، وهو ساخر بطبعه ، لا تعرفه وطنيا أو وطنجيا ، يفلسف كل شيء ، وله افكار شاذة حول كـل شـيء ،

عنيف وهادىء ، يبكي اذا سمع اغنية حزينة ، ولكنه ارتكب جريمتي قتل في حياته ، احدهما كان يهوديا والاخر عربيا ، وفايز هـذا في التحليـل النهائي يعرف كل شيء ، ويتحدث في كل شيء ولا يعرف شيئا في الوقت نفسه ، يساعدك من حيث يضرك ، ويضرك من حيث يريد مساعدتك .

لقد كانت صدفة ، وصدفة مذهلة ، فرحت لها بقدر ما تشاءمت منها، وسلمت امري لله ، وكان قدري وحظي ان استمع اليه والى صحبه طويـلا طويلا ، وكان قدري ايضا ان اقضي اليومين المقبلين في صحبته ، لاكتشف وبعد التجربة المريرة التي عاشها ـ فايز ـ فانحنى ظهره بالهم والعـذاب ، وشاب رأسه الجميل بالالم والمعاناة ، ان « فايز » هذا اصبح انسانا جديـدا فقدم لي تجربته الضخمة في ظل الاحتلال والتي لخصها بقوله : « انه لا يمكن بل يستحيل التعايش مع هؤلاء الناس ، مع هذه العقليات المريضة ، مع هؤلاء الذين لا يفكرون الا بازالتنـا وابادتنـا «كعائق بشري» امام توسعهم ومطامعهم التي لا حدود لها » ... ومع ذلك فقد احتمل « فايز » الاحتـلال عشرين عاما ، يبدو انه لم يكن من السهل عنده ان يجد البديل خارج دنيـاه وصيدليته وما تبقى من أملاكه ، وشارع النزهة وحي العجمي ... والبحر ... وشاطىء الشباب ... شيء واحد ظل يعيش مع فايز ، وذاك حرصه على معرفة كل شيء ، ولكن بدون فلسفة .. وهكذا كان لا بد ان يكون مفيدا في رحلتي داخل الوطن المحتل ..

قال لي ولصاحبي : « تعال وقبل ان تغرب الشمس نطوف في «مدينة الاطلال» يافا التي تحبها ... تعال وتفرج على يافا ، كان قد بدأ يتقمـص شخصيتي ويشعر بأحزاني ، ويحس بفضولي ، بدأ يدرك انني أريـد ان اعرف واتعلم وكانت هذه فرصته ...

بدأنا نمسح المدينة، حيا حيا ، وشارعا شارعا ، وبدأت أدرك تعبيره عن «مدينة الاطلال» وبدأت اتساءل بيني وبين نفسي احيانا ، وأسألـه بعـض الاسئلة أحيانا اخرى ... لماذا تقلصت البيوت وضمرت بهـذا الشكـل ؟ العمارات تضاءلت ، وقصرت طولا وعرضا ، والشوارع أصبحت ضيقـة ، وتعرت وكأنها ليست شوارع ، وصحيح ان المساكن والمخازن لم ترمم ولم تمس من عشرين سنة ، وتركت مهملة بالرغم من انها مسكونـة باليهـود الشرقيين ، الا ان منظرها يلفت النظر وكأنها في طريقها للتداعي او العناق من فوق الارض والشوارع التي تقف فوقها ... خراب ... خراب في كل مكان ، قبح واهمال ، وكأنها ليست يافا ، عروس فلسطين. قطعت الشارع

بين العجمي مرورا بشارع اسكندر عوض الى السرايا الحكومية القديمة القريبة من مطعم «أبو عفيف» لاسمع كل حجر يجهش ويسأل ويشتم ... ولارى الموت والفناء في كل شبر... قال : «تركوها مهملة عن قصد ، والله يعلم ما هو ، جمعوا فيها كل شذاذ الافاق من اليهود الشرقيين ، جزائري على مغربي على يمني ، كما جمعوا العرب الفلسطينيين المعدمين والمرضى فيها ... مدينة بلا رقابة ، حشيش وافيون وبغاء ولصوصية ، حولوها الى كل ذلك ، ويأتون بالسواح الاجانب عليها ليشاهدوا العرب فيها وكيف كانوا يعيشون» ... صمت «فايز» قليلا ونظر الي وكأنه يريد ان يتحفظ ثم قال : «ومع ذلك فهناك وجه مشرق في يافا سأحدثك عنه ولا بد ان ترى بعضه ، أريدك أن تقيم معي انت وصاحبك ضيوفا علي ، سأحدثكم كثيرا ، واجعلكم تشاهدون مختلف الناس ، من يعمل في التجارة ومن يعمل بالسياسة على الاسلوب الاسرائيلي طبعا ، اريدك ان تضحك وتبكي وتتأمل وتعرف ، ومن ثم ربما تفرح اذا علمت وفهمت» ...

وسألته : ماذا يعني بكل هذا الكلام بالضبط ، ورجوته ان يبسط الامور لي ، وكنا قد وصلنا الى بيته في «النزهة» ودخلناه هيابين ، مما قد تخبئه الاقدار لنا ، وجلسنا في صالونه الشرقي ، وكان في صدر الحائط صورة كبيرة مزخرفة للمسجد الاقصى مكتوب تحتها بيت الشعر المشهور للشاعر الفلسطيني الشهيد عبد الرحيم محمود من قصيدة القاها امام الامير فيصل بن سعود عام ١٩٣٦ (الملك حاليا) عند زيارته لمدينة القدس يقول فيها :

«المسجد الاقصى اجئت تزوره ؟ ام جئت من قبل الضياع تودعه ؟»

٢٠ أيلول ١٩٦٧ :

٢٠ ايلول ١٩٦٧ : طلع الفجر علينا نتحدث بكل شيء ، وحوالي الساعة العاشرة ، وقبل ان نتناول فنجان القهوة التركي الذي طلبناه من فايز ، رن جرس الهاتف ، وقام صاحبنا ليرد عليه ، وفجأة سمعناه يقول لمحدثه «انتظر ، انتظر قليلا ، وتوجه لنا بالحديث قائلا : «محدثي هو عضو عربي سابق في الكنيست الاسرائيلي ، من حزب الماباي ، وهو الحزب الحاكم القوي باسرائيل ، ويريد ان يزورني الان ، وبناء على موعد سابق ، هل

استقبله أم أؤجل الموعد ، صاح بي : «فلنتسل ، ولنفهم كيف يفكر هؤلاء الناس». وكأن الواحد قد نسي في غمرة الاحداث ان حزب آلماباي والمؤسسة العسكرية الصهيونية قد خلقت لها اصناما ونوابا ورجالا من طراز معين ، وتحت كل الظروف يخدمون السيد الحاكم .. قلت له بغير فضول «اذا كان موعدك معه ، فليأت وماذا سنخسر نحن من رؤيته» فدعاه للمجيء دون أن يذكر ان عنده ضيوفا ...

دخل العضو العربي السابق في الكنيست الاسرائيلي يصحبه شاب لا يتجاوز الثلاثين من عمره ، قدمهما لنا الاخ فايز بقوله : «السيد «صالح خنيفس» وأحد أقاربه» كما قدمنا له باسماء غير اسمائنا على اننا من عرب الضفة الغربية ..

جلس الرجل وبدون مقدمات راح يخاطب « فايز» قائلا له: «هؤلاء الكلاب ما يزالون يتابعونني ويضايقونني وقد بدأت أفقد صبري معهم ، لا فائدة ترجى منهم مهما خدمهم الانسان» .

كان كلامه غامضا بالنسبة لنا ، ولكن سرعان ما تدخل الاخ فايز للتفسير قائلا : «الاخ صالح دخل الانتخابات النيابية مدعوما بحزب الماباي ، الحزب الحاكم المؤيد من الحكم العسكري وكل اجهزة الدولة ومؤسساتها ابتداء «بالهستدروت» وانتهاء بالمخابرات العسكرية ، وقد قدم خدمات كثيرة للحزب وللدولة ، ولكنه عاد واختلف معهم ، فلم يتركوه لشأنه ، فمنعوه من الترشيح في الدورة التالية ، لعام ١٩٥٩ ، وحرموه من كافة الامتيازات والحقوق التي كان يتمتع بها ، وذهبوا اكثر من ذلك ، وصادروا «ابقاره» باسم الضرائب المعلقة ، ثم صادروا مجموعة السلاح الذي كان يقتنيه بمعرفتهم ثم منعوه من تجديد الرخص لهذا السلاح ، وما زالوا يضايقونه..

سأله صديقي «ع» هل ترشحت على قائمة حزب الماباي ، وهل للحزب نفوذ في الاوساط العربية ؟. قال صالح : بدأ حزب الماباي بالنشاط في الاوساط العربية بعد ان أستقر الحكم للدولة الجديدة بوقت قليل ، وقد دخلنا الانتخابات في قوائم عربية متحالفة مع الحزب ، والحقيقة اننا بعد النكبة وبعد خروج معظم الناس، والقيادات ، رفعنا شعار «الذي يأخذ امي هو عمي» وثبت فيما بعد ان هذا شعار خاطىء ، وانه كان من الخطأ ان نتعاون مع هؤلاء الناس الذين ضحكوا علينا» .. وصمت الرجل وشرد فكره بعيدا ، بينما استأنف الحديث قريبه الشاب فقال :

«ان حزب الماباي لا يحمل بممارساته ونشاطاته في الاوساط العربية

اية أسس عقائدية من شأنها ان تعطي العرب هناك حتى بعض التمنيات في امكانيات التعايش ، وحتى العرب الذين ينافقون له ويتعايشون في ظلـه للانتفاع غير منتظمين في حزب ، وهم عبارة عن «زلم» واتبـاع للحـزب ومؤسساته لا يتعرف عليهم اعضاء الحزب الا وقت الانتخابات.. ان «بن غوريون» زعيم الحزب لم يتنازل ان يزورهم اكثر من مرتين عبر العشرين عاما الماضية ووعدهم وعودا كاذبة ، كما ان بن غوريون يحتقـر العـرب ويكرههم ، لقد قضى في فلسطين حوالي الخمسين عاما ولا يكتب او يقرأ أو يتكلم كلمة واحدة باللغة العربية ، ولقد رفض مرة ان يتسلم هويته العبرية لانها تحمل اسمه ورقمه باللغة العربية» . واستأنف الشاب قـريب النائب كلامه قائلا : «ان بعض الناس التفوا حول المباي ، وعلى استعداد ان يلتفوا حول كل حاكم ، هؤلاء يمثلون المرتزقة في كل مجتمع ولكنهم آخـذون في الانقراض ، ان جريدتهم باللغة العربية وهي جريدة «أليوم» لا توزع اكثر من ألفي عدد ، يقرأها الناس من باب الفضول لا غير ، ان منظر اعضاء الكنيست العرب وخاصة المباي مضحك في الكنيست الاسرائيلي ، فهم يبصمـون ولا يناقشون أتفه القضايا ومع ذلك فهم محتقرون» .

كان «العضو المحترم» صامتا يسمع الى قريبه الشاب ويهـز رأسـه ، ويقول : «يا باطل ، يا باطل» لقد اكتشف من خلال مأساته الخاصة حقيقـة المأساة العامة ولكن بعد فوات الوقت ...

وهنا عاد قريبه ليقول : «ان وضع العرب في (اسرائيل) موضوع طويل ويحتاج الى شرح وتفسير ، وعلاقة الناس بالاحزاب المختلفة علاقة متباينـة مختلفة ، تصب في النتيجة والنهاية في خدمة الدولة، والدولة في التحليل النهائي لا تقبل ان ينمو للعرب فيها أي كيان وتواجد حقيقي وهي تعالج هذا الامر بكافة الوسائل ابتداء بالارهاب وانتهاء بالتحايل والرشوة والتمييـع لابقاء العرب فيها مواطنين من الدرجة العاشرة ، وسأعطيكم آلاف الادلـة والبراهين على ذلك» ..

وختم كلامه بقوله : «ان هذا الكلام ينسحب عـلى كافـة الاحـزاب الاسرائيلية مع التفاوت والبراعة في الممارسة ، باستثناء الحزب الشيوعي الذي ينشط بين العرب على أسس عقائدية محددة ، وهو الحزب الوحيـد الذي استقطب الجماهير العربية القليلة التي بقيت في اسرائيل وناضل من أجل حمايتها ، وبالفعل رغم الاضطهاد الذي وقع عليه خاصة بعد الانشقاق ما زال يشكل الحماية لكثيرين من العرب يعملون تحت لوائه دون ان يكونوا

من الشيوعيين ، ان تاريخ ونضال الحزب الشيوعي في اسرائيل مليء بالمفارقات ، ولا يمكن ان يفسر أو يفهم التحرك والنشاط العربي في ظل الاحتلال الا من خلال فهم نضال الحزب الذي كانت ترتفع شعبيته وتنخفض بقدر ما يساند حركة الجماهير العربية خارج الوطن المحتل» ...

صمت صاحبنا الشاب الذي بدا وكأنه واحد من الذين يعملون تحت الشعارات التقدمية ووعدنا ان يعرفنا على الكثيرين من العرب في يافا وغير يافا ..

«وسننشر تباعا هذه التجربة والمعلومات في الاعداد القادمة» .

العدد الخامس

٢٦ تموز ١٩٧٢



في المثلث
عادت ذكريات مفاوضات «الربع سنتمتر»

٢٢ أيلول ١٩٦٧ :

كانت الايام القليلة التي قضيناها في مدينة يافا ـ مدينة الاطلال ـ وقضائها ، كافية لنتعرف من جديد على المدينة التي غادرناها قبل عشرين عاما ، لنعود فنجدها تشبه الجثة شكلا وموضوعا ، كما سلف وصورنا تجربتنا فيها في مطلع مذكرات الامس .

في صباح هذا اليوم دخل علينا الاخ فايز وابلغنا بأنه مستعد للعودة معنا الى القدس ، ونصحنا بأن لا نطيل اقامتنا اكثر في مدينة يافا ، لان بعض المتطفلين اخذوا في السؤال عنا ، كما أكد على ضرورة تواجدنا في القدس وعدم التحدث عن الرحلة ، ليتمكن بعد ذلك من السفر معنا من جديد الى مناطق اخرى في الارض المحتلة .

بدأ فايز حديثه معنا في السيارة عن اوضاع ومشاكل الاقلية العربية في ظل الاحتلال، وما طرأ على اوضاعها من تبدل في العشرين سنة الماضية، وكان ينوي ان يستفيض في الحديث والشرح ، وكنا قد وصلنا الى حدود مستعمرة «نيتر» وهي تقع على جانب اول الطريق الممتد بين مدينة يافا

ومدينة القدس ، عندما رأينا فتاة ترتدي الكاكي والبنطلون تلوح لنا وتطلب منا ان نتوقف ، وبحركة مفاجئة اوقف صاحبي ـ ع ـ السيارة قربها وسألها باللغة الانكليزية عما تريده ، فطلبت من دون استحياء ان ننقلها معنا الى القدس فهي في عجلة من امرها وتريد الوصول بسرعة الى هناك .

تطلع صاحبي نحوي ، فلم أدر كيف أتصرف ، وهنا تدخل فايز وحسم الموقف لا مانع «دعها تركب» ، وصعدت الى المقعد الخلفي وهي تحمل حقيبة متوسطة الحجم في يدها . استأنفنا السير بينما كانت تحاول هي ان تعتذر وتشكرنا في الوقت نفسه قدمت نفسها باسم «تانيا» وهي طالبة في السنة النهائية في الجامعة العبرية تدرس التاريخ والادب. كانت ذات ملامح جذابة ، اقرب منها الى الطول تتحدث معنا بثقة في النفس وكأنها تعرفنا منذ وقت طويل .

وخيم الصمت علينا ، بينما كانت السيارة تسرع نحو القدس ، وفجأة سألها صاحبي ـ ع ـ : «هل أنت من هذه البلاد ؟» واجابت بسرعة وكأنما كانت تنتظر السؤال : «طبعا ، طبعا ، وأبائي واجدادي ، واجداد اجدادي» . قال صاحبي : ـ وهو بالمناسبة بارد الاعصاب جدا ـ «العفو يا انسة العفو ، ظنناك سائحة اجنبية او مقيمة هنا ، فشكلك لا يوحي بأنك من هذه البلاد ، العفو ، العفو وما كنا نقصد التعرض لاجدادك واجداد اجدادك» .

قالت : من انتم ؟ ألستم اسرائيليين انكم تركبون سيارة اسرائيلية ، اجاب صاحبي مرة اخرى « العفو يا أنسة لم نحصل على هذا الشرف بعد ، نحن فقط سواح في بلادك وبلاد اجدادك ، أحببنا ان نزور يافا ، وعكا ، والرملة واللد للمشاهدة والثقافة الجغرافية والسياحية في بلادكم العظيمة» ... كانت السخرية تسيل من كلماته ، والحزن يطغي على الحروف . لكنها لم تستسلم وانبرت تقول : «يبدو لي انك تسخر ، وانك لا تصدقني مع انني قلت لك انني طالبة تاريخ وفي السنة الاخيرة» . وراحت الانسة تانيا وبحماس بالغ تسرد معلوماتها في التاريخ العبري قبل الفي عام ، وتأتي بالحجج والبراهين على ان البلاد كانت لهم في ذلك الوقت ... كان الموقف مضحكا ومبكيا ، ماذا يمكن ان تقول لهذه الطفلة ؟ من أين نبدأ معها ؟ وهل هناك حتى ما يدعو الى ذلك ؟ وهل هناك من فائدة ...

كنت أتفرس بعينيها المتحفزتين للصراع والحوار ، عندما سألها ـ ع ـ « اين ولدت أنت ؟ » قالت : «في القدس» ... «وابوك» ؟ قالت : «في روسيا» «وجدك لابيك ؟» قالت : «أيضا في روسيا» . وهنا تململ صاحبي

ـ ع ـ وتحركت فيه نزوته الوطنية ، ونزوة ابناء العائلات ! وقال لها بما يشبه الانفعال : «اسمعي يا انسة ، انا ولدت في القدس ، ووالدي ، ووالد والدي المباشر ، وجدودهما لعشرة أجيال ، وهذا الذي وصلنا فقط من خلال تاريخ العائلة المدعم بالوثائق والصور ، منذ خمسمائة سنة كان جدي الكبير واليا للقدس، فأين كنت أنت؟» أخرج صاحبي ـ ع ـ محفظته، وبدأ يناولها صورا لاجداده واسمائهم بمختلف الازياء والاوسمة وينثرها على حجرها ، ويسمعها محاضرة مضادة بالتاريخ الحقيقي لفلسطين ، ويعيدها الى مراجع ومصادر عالمية ، لم تسمع هي بها ولم تدرسها ، لانها كانت ممنوعة عنها ..

مرة اخرى ظهر الموقف الذي وصلنا اليه مضحكا ومفجعا معا ، كان منظر صاحبي مأساويا ، وكان منظرها متحديا ولكن اعترته هزة واضحة ظهرت على محياها المكابر الذي لا يريد ان يصدق هذا الذي يسمعه، ولاحت بوادر الشك على وجهها ، لقد كانت الفتاة تتكلم بقناعة ، هكذا لقنوها ، وهكذا علموها، وهي ترى ان كل شيء ينهار في أمر يمس حياتها ووجودها، بل تفكيرها وعقلها وثقافتها ...

قطعت على أفكارها الطريق ، وقلت لها «اريد ان أسلم معك جدلا انكم كنتم هنا كدولة وفوق بعض هذه الارض قبل الفي عام، فهل هذا يفسر وبعد الفي عام ان تستعملوا كل الاساليب التي استعملتم كصهاينة ، لتسلبوا وتطردوا الشعب الفلسطيني الذي يقيم في هذه الارض كل هذه السنين ؟ وهل هناك أي مبرر اخلاقي او انساني او قانوني لمثل كل هذه الاعمال البربرية التي قمتم بها ؟» .

قالت «لقد اضطهد شعبنا في كل العالم فكان لا بد ان يجد لنفسه مكانا يقيم عليه دولة اسرائيل ليحمي نفسه ولغته ودينه وتراثه» .

قلت لها :

«هل سألت نفسك يوما لماذا اضطهدتم كشعب ؟ وبالمناسبة انتم اضطهدتم في كل مكان ولكن ليس في بلادنا العربية ولا في فلسطين ، بل عشتم وتعايشتم ورعيناكم وساويناكم بأنفسنا ، فهل كان هذا هو الجزاء ؟ وهل كان الثمن أن تنشأ مثل هذه الحركة الصهيونية البدائية الفاشية لتمارس علينا ارهابها وتوسعها ، مستعينة بكل القوى الاستعمارية والامبريالية التي تطمع في بلادنا منذ التاريخ» ؟؟

وقلت لها : « ومع ذلك فاننا ما زلنا نفرق بين اليهودية كدين وبين

الصهيونية ، ونعتقد أنكم ضللتم ، وأنكم ترتكبون الخطأ تلو الخطأ بهـذه الاعتداءات وهذا التوسع » .

قالت : « هذا مستحيل ، كل جيلنا الذي سيتولى المسؤولية يوما ما قانع بوعي وصدق ان هذه بلادنا، وان الحرب كر وفر، وأننا انتزعناها منكم بالقتال وهذا من حقنا ، ونحن اليوم موجودون هنا وسندافع عن هـذه الارض » .

قلت لها : « اعرف ذلك، وهذا يجعل مسؤولياتنا أكبر، وعبء التحرير أعظم ، تحرير الارض ، وتحريركم أنتم ، أي تحرير كـل اليهـود مـن الصهيونية ، لتصبحوا شعبا سويا قادرا على التعايش مع كل الناس» .

قالت : «وهل يعني أنكم وبعد كل هذه الهزائم لن تستسلموا ، ولـن تتركوا لنا البلاد » ؟

قلت : «اسألي هذا الشاب الذي يجلس الى جوارك ــ وأشرت الـى فايز ــ لقد عاش معكم عشرين سنة وهو بالهوية اسرائيلي ، فهل استطاع ان يتعايش معكم ؟ لقد عاش كل هذه المدة مواطنا من الدرجة العاشرة ، أنه حتى لا يفهم اللغة التي نتحدث بها الان» .

التفتت اليه وسألته بالعبرية : « هل انت اسرائيلي ؟ » قال «بالهوية يا انسة ، ولكنني فلسطيني وعربي وديمقراطي ، أريد ان اعيش في فلسطين ولكن ليس تحت ظل مثل هذه الدولة الفاشية العنصرية ، يجب ان نعيش كلنا في فلسطين ، وفي مجتمع ديمقراطي حقيقي ، بدون هذه الدولة التي لا تتوفر فيها مقومات الحياة ، ولكن في دولة فلسطينية تكون جزءا ملتحما ومتعايشا في هذه المنطقة العربية الواسعة» .

كنا قد وصلنا الى مشارف القدس ، وخيم الصمت والتوتر عـلى الجميع .. ولاحت من بعيد اسوار المدينة المقدسة .. قالت « هـا هـي القدس » .. قلت لقد حولتموها الى قلعة حرب ، وعندما ننتصر سنحولها الى قلعة سلام .. فكري ، فكري ، وساعدي شعبك من ضمن هذه الافكار التي قلناها لك .. ان السنوات في عمر الشعوب لا قيمة لها .. والقضية بالنسبة لنا وامام توسعكم قضية حياة او موت ...

•

١٠ تشرين اول ١٩٧٢ :

أفقت منفعلا هذا الصباح ، وفي حماس بالغ رحت أعد حوائجي للسفر

الى شمال فلسطين بعد ان طال بقائي في القدس، شاهدت اثناءه ما شاهدت من عنجهية الصهاينة ، وصلفهم ، واعتداءاتهم المتكررة على السكان ، واساليبهم الماكرة في مصادرة الاراضي والدس بين فئات الشعب وحرب الاشاعات والتخدير الذي كان يطلق هنا وهناك ..

كان « فايز » قد أعد كل شيء للرحلة ، وقدمنا الى شاب يدعى «موسى» قال «انه سيرافقكم الى الشمال ، بسيارته ، وسيؤمن لكم كل الاتصالات اللازمة» . وموسى هذا شاب في الخامسة والعشرين من عمره ، تمركس على يد الحزب الشيوعي الاسرائيلي منذ نعومة اظفاره ، وشب في ما يسمى بدولة اسرائيل . كان لطيفا أنيسا ونحن نعبر الطريق الى يافا من جديد ، يحاول ان يوفق بين النظريات التي درسها واستوعبها، وبين تجربته الذاتية في ظل الاحتلال ، وبين الواقع وخيبة الامل التي يشعر بها كانسان لم ير شيئا تحقق في حياته القصيرة عبر الاهداف التي ناضل من أجلها في اسرائيل ، او عبر التجربة التي خاضتها الامة التي ينتمي اليها خارج اسرائيل ، والتي توجت بهزيمة الخامس من حزيران ...

من جديد سلكنا الطريق الى يافا ، ومررنا بقرى صغيرة متناثرة ومستوطنات يهودية جديدة ، ومنها الى «بتاح تكفا» ومن ثم عبرنا الطريق الى المثلث الخصيب صاحب التاريخ الطويل العريض في الاحتلال الاول واثناء الاحتلال... وللمثلث كما ذكرت شجون واشجان عند كل فلسطيني، اما لي ففيه اكثر من شجن واكثر من ذكرى ، لا استطيع المرور بواقعة محدودة منها بالذات ، دون ذكرها ، وانا اسجل هذه المذكرات ، ولن أتوسع فيها ، لان هذه الواقعة بالذات سبق ونشرت قبل عشرين عاما في مجلة كانت تصدر في مدينة رام‌الله اصدرها بعض ابناء فلسطين فيها واسمها «الجيل الجديد» .

كان ذلك وبعد ما يزيد على العام منذ انشئت اسرائيل ، وقد خرج من دخل من القوات العربية واعلنت الهدنة ووقعت المعاهدات ، وبدأت اسرائيل تناقش في الحدود من جديد على ضوء الخرائط التي وقعت في رودس . وقد يتركز الخلاف بين الصهاينة وبين بعض الدول العربية وخاصة في الاردن على «ربع سنتمتر» على الخارطة .

ويقول الذين وقعوا الهدنة ، أنهم لم يقدروا ان «الربع سنتمتر» على الخارطة يعني الاف والاف من الدونمات والافدنة الخصبة من أرض فلسطين ، وكان من أبرز المفاوضين في تلك المرحلة رياض المفلح الوزير

الاردني فيما بعد وبطل مفاوضات جدة المعروف ...

وهكذا كان ، فقد وقع الخلاف، وهددت اسرائيل بعد انسحاب الجيش العراقي مباشرة ، بالزحف على المثلث ان لم تسلم أراضيه كلها تقريبا الى اسرائيل ، بموجب الخرائط «الممضية» من الوفد الاردني المفاوض ...

وطلبت لجنة الهدنة المشتركة ان يجتمع وفد من الاسرائيليين واخر من الاردنيين لبحث الامر على الارض وعلى الخرائط ، وكلف لهذه المهمة عن الجانب العربي احمد صدقي الجندي وهو قائد في الجيش الاردني وانتدب لمرافقته السيد احمد الخليل وكان مساعدا للحاكم العسكري في مدينة رام الله وهو محام فلسطيني من حيفا وكان في الجانب الاسرائيلي ، «موشى دايان» شخصيا ومعه مجموعة ضباط من جيش الدفاع الاسرائيلي .

أصر احمد الخليل على دعوة بعض الصحفيين المتمردين في تلك المرحلة من الذين كانوا يهاجمون النظام ويلقون عليه وعلى غيره من الانظمة العربية مسؤولية ضياع فلسطين ، أصر على دعوتهم ليثبت انه ذاهب للمراقبة وليس للتوقيع ، وكان حريصا هو وغيره من الفلسطينيين باديء ذي بدء ان لا يلوثوا بما حدث ، ولكن سرعان ما جرف النظام عشرات بل مئات من طبقته فاستسلموا للنظام ودعموه وحكموه .

وكنت آنئذ في مدينة رام الله ، وألح صاحب «الجيل الجديد» علي لمرافقته كصحفي ، وحملنا جراحاتنا ـ وكاميراتنا ـ وذهبنا لتسليم المثلث ...

كانت المفاوضات مضحكة ، وكان موشي دايان يتكلم من موقع القوة ويقول : «هذه حدودنا على الخارطة التي وقعتم عليها ، ومعنى ذلك ان أرض المثلث هذه لنا ، وعليكم الانسحاب» ...

وكان ببساطة تصل حد الغباء وحد المأساة يرد عليه اللواء احمد صدقي الجندي ـ رحمه الله ـ «اننا لم نكن نعرف ان كل هذه الارض العربية ، ستهب لكم ، هذه الارض ما زال يزرعها ابناؤها وهم مقيمون فيها ، فكيف يخرجون» ... كاد كلامه يصل حتى الاستجداء والمهانة ... وتعب الفريقان من الاخذ والرد ، وتابع موشى دايان يرسم لهم خطة الانسحاب على مراحل وتخيير المزارعين بالانضمام لهم ... أو لهم ...

وفجأة خرج موشى دايان من الخيمة التي كانت تجري فيها المفاوضات على الحدود في منطقة طولكرم ـ قلقيلية . وكانت هذه المرة الاولى التي أراه فيها ، كان ما زال نحيلا ، وعصبة عينه السوداء تغطي نصف خده

البارز ... وفجأة خرجت بدوري خلفه ، وكان يدير ظهره الى الخيمة وقد وقف وحيدا ينظر للساحل ... مشيت نحوه ، فاستدار ، لم يكن مهما في حينه ولا منتفخا مثلما هو الان ، ولكنه كان اسما لامعا بين ضباط الهاجناه.

تقدمت نحوه واخبرته انني اريد ان أتحدث معه . قال : «تفضل» قلت: لقد استمعت الى المهزلة في الداخل وانصح بأن لا تتم مثل هذه الاجراءات، انها خطيرة ، وتزيد أضعاف أضعاف على ما هو في قرار التقسيم ، وستزيد الحقد ضدكم ، وستشعل النار من جديد ، هذا كل ما تبقى لنا من ارض خصبة لا داعي لكل هذا التشدد ...

اليوم فقط أعرف انني كنت طفلا مراهقا ، ومع ذلك فقد أحسست انه من واجبي ان أفعل شيئا من أجل انقاذ هذه الارض الخصبة الجميلة ... نظر الي موشي دايان من فوق ، وقال : « هذه الحرب ، وسوف تنسون ، نحن نعرفكم» .

ومرت عشرون سنة ولم ننس ... وعدنا الى رام الله ، وكتب صاحب الجيل الجديد مقالا بعنوان : «كيف سلمنا المثلث» وافتتاحية بعنوان :

ومن دخل البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد ..

واعتقل صاحب المجلة للمرة الخامسة منذ الاحتلال، وصودرت المطبعة، واعتقل المحررون والعمال واصدقاؤهم وكل من كانت لهم علاقة بالمجلة المذكورة ...

وبينما كانت هذه الذكريات تجيش في صدري ، وصلنا الى «العفولة» ومنها راحت تقترب السيارة نحو مدينة «الناصرة» . الناصرة بلد السيد المسيح عليه السلام ، البلد التي وصلت انباء مناضليه الى كل مكان في الوطن العربي ، ولست أدري لماذا رحت افكر بقول السيد المسيح : «وهل يخرج رجل صالح من الناصرة» . مع ان المعلومات والانباء تؤكد ان عناصر متعددة ، وباتجاهات متعددة برزت هناك وناضلت ضد الاحتلال وحاولت ان تجد بعض الكيان للشعب الفلسطيني المبتلى بالاحتلال والصهيونية ...

وهنا تململ الاخ موسى ، مرافقنا الى مدينة الناصرة ، وقال : من الناصرة، انطلقت وتوسعت الحركة الوطنية ممثلة في الحزب الشيوعي الذي مارس دوره في ظل الاحتلال من ضمن رخصة قانونية ، كما من هنا انطلقت حركة الارض بمفهومها القومي وتوسعت وانتشرت لتعود وتسحق من قبل الصهاينة ...

قال موسى في معرض حديث طويل عن الاحزاب التي عملت في ظل

اسرائيل ، وعملت في الساحة العربية فيها : ان الحزب الشيوعي في اسرائيل وحتى قبل انشقاقه الى حزبين بحيث ذهبت الاكثرية العربية جهة، والاكثرية اليهودية في جهة اخرى ، كان يحاول ان يطرح افكارا معينة لحل المشكلة من ضمن عقيدته الماركسية اللينينية وتفسيرها للامور في ذلك الحين . والحزب الشيوعي ـ كما قال موسى ـ هو الحزب الوحيد في اسرائيل الذي يتمتع بعقيدة ويضم عددا كبيرا من المواطنين العرب ، والحزب يعمل من خلال فروعه المتعددة في مختلف المدن والقرى ومن خلال عدد غير قليل من الصحف والمجلات التي تنطق باسمه وابرزها «الاتحاد» وتصدر مرتين في الاسبوع ، و «الجديد» هي سياسية أدبية تصدر مرة في الشهر ، و «الغد» وهي مجلة شهرية للشباب ، و «الدرب» وهي مجلة الحزب العقائدية وتصدر في مواسم .

لقد لعب الحزب الشيوعي دورا كبيراً في حياة السكان العرب باسرائيل، فهو بالاضافة الى الطرح النظري الذي لم يوافق كل العرب عليه ، وقف من الحكم موقف المعارض بعد قيام الدولة بوقت قصير ، فتصدى بذلك لمعظم عمليات القمع والاضطهاد التي كانت تتعرض لها الاقلية العربية لاسيما في السنوات الاولى من سنوات الحكم الفوضوي الذي شمل الدولة ومؤسساتها ، ولقد دعم الحزب في كفاحه معظم الجماهير الفلسطينية التي كانت تحت الاحتلال ، لانه كان سبيلها الوحيد لمقاومة العدوان عليها ومؤامرات السلطة ضدها . ولقد تجلى هذا الدفاع بالممارسة والتنظيم ضد السلطة ، كما عبر عنه خاصة بالصحف العربية الشيوعية أصدق تعبير .

ولقد ازداد نفوذ هذا الحزب مع الزمن وازداد انصاره العرب ، وبدأ في عام ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ وكأنه الناطق والمعبر الوحيد عن العرب داخل الوطن المحتل . على ان نفوذه ازداد عندما تبنى الاتحاد السوفياتي حركة التحرر العربي ، والقومية العربية ، ضد الامبريالية وعدوانها في الشرق الاوسط، ووصل الحزب قمته عند قيام الجمهورية العربية المتحدة برئاسة جمال عبد الناصر ، حيث رفع الحزب معظم شعارات المرحلة بما فيه حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره .

●

في المذكرات المقبلة ننشر بقية التحليل عن الحزب الشيوعي وكيفية

انشقاقه ومقابلتنا لابرز قياداته ، كما ننشر عن حركة الارض العربية ومقابلتنا لبعض قادتها .

★★★

« لماذا راكاح ؟ »
في أحاديث مع
توفيق طوبي واميل حبيبي

١١ تشرين اول ١٩٦٧ :

دخلنا مدينة الناصرة ، وكانت الشمس تأذن بالمغيب ، وعبر شوارعها التي كنا نخترقها نحو هدفنا المنشود ، لاحظنا ان ثمة بعض تغييرات قد لامست شكلها الخارجي ، خلافا للمدن الفلسطينية الاخرى التي كنا قد حللنا بها وزرناها في السابق ، فالعمارات قد ازداد عددها ، والقديم منها ما زال يحتفظ برونقه أو تجدد ، والشوارع مرصوفة ونظيفة ، ودلائل الحياة واضحة في المحلات والمتاجر المنشورة على جانبي الطرق التي تغص بالناس .

ومن فوق مدينة الناصرة ، كانت تطل مدينة «الناصرة الجديدة» كما اسماها الاسرائيليون بعد الاحتلال واقاموا بها وفيها دوائر الحكومة ومصالحها ، وكأنما بنيت قصدا ، لتطويق المدينة القديمة والاشراف عليها ...

كانت السيارة تعبر بنا شارعا شارعا ، و «موسى» مرافقنا يتحدث ويشرح لنا بعض التغييرات ، أو يشير الى بعض المعالم في المدينة ، وكأننا سواح ندخلها للمرة الاولى .. وكان موسى يحرص على ان يبدو بشكل طبيعي ، فقد توقف مرتين عند بائع سجائر ، وكان يحيي معارفه وهو يمر بهم ، ومعارفه كما اتضح فيما بعد يشكلون نصف سكان المدينة من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، وذلك بحكم نشأته وعلاقاته العامة بالذين يمارسون النشاط الاجتماعي والسياسي ..

وفجأة اوقف موسى السيارة عند «كشك» للصحف ونادى على رجل اسمه «ابو جورج» وسأله اذا كان الجماعة موجودين ، واذا كنا نستطيع الذهاب عندهم ، فقال ابو جورج: «لا انصح هذه الليلة فالجماعة مجتمعون،

لماذا لا تذهبوا الى بيت «ابو عطالله» وتستريحون هذه الليلة ، «والصباح رباح» ؟ ابتسم ابو جورج ابتسامة العارف بمجاري الامور ، وهي ابتسامة تكاد تكون من «خصائص» ابناء امتنا مهما حاولوا ان يتستروا ويلعبوا الادوار المكتومة المخصصة لهم ، كلنا يعلم ، وكلنا مطلع ، وكلنا من صميم الحلقة الضيقة ولذلك لا اسرار ... ذكرتني ابتسامة ابو جورج بتاريخ عشرين سنة عملتها في الحقل العام في الوطن العربي ...

توجهنا الى بيت «ابو عطالله» دون ان نعرف او نسأل حتى من هو ، وكانت عيون الفضوليين تلتهمنا في الشوارع والازقة الضيقة من على الشرفات ومن خلال النوافذ ، دخلنا البيت لتستقبلنا سيدة في الربيع الثاني من شبابها ، كلها حيوية وأدب ، وترحب بنا وكأنها تعرفنا منذ أمد ، قدمنا اليها وقدمت لنا باسم الرفيقة «سهام» . وقادتنا الى صالون متسع وجلست معنا بعض الوقت واستأذنت لتهيء لنا أسباب الراحة ، وفي هذه الاثناء طلب منا «موسى» ان نتصرف بشكل عادي ، «وان لا نتحدث نحن بالذات في السياسة ، لان البيت سرعان ما يمتلىء بالاقارب والضيوف ، فأهل الناصرة يحبون السهر «وطق الحنك» ولا بد من سهرة اجتماعية نغطي بها زيارتكم للناصرة ، فانت وصاحبك من رجال الاعمال ، ولا داعي لان يعرف القادمون من أنتم» .

وبالفعل سرعان ما توافد الجيران ، وجيران الجيران ، من رجال وسيدات ، ويبدو ان السهرات واللقاءات الاجتماعية في البيوت تزداد عند النكبات ، الناس يحبون التجمع في مثل هذه الحالات ، للاستماع وتبادل الآراء ، والتحليل طبعا واستعراض الموقف ...

وهكذا كان وبعد مضي دقائق معدودة فقط على بدء التعارف حتى بدأت النسوة تسأل وتتساءل عما يجري هنا وهناك . قالت احداهن : مسكينة «ام جبران» . وسأل صاحبي عن «ام جبران» فظهرت علامات التعجب على وجوه النسوة ، واستغربن جهل صاحبي الذي خيل اليه انه ارتكب جريمة بجهله الفاضح . من لا يعرف قصة «ام جبران» التي ماتت وهي تستمع الى الراديو عندما اعلن عبد الناصر استقالته من الراديو بعد الهزيمة مباشرة ؟ ام جبران التي صرخت من اعماق قلبها «يا ولدي» فتجمعت في صرختها كل آلام وجراح الامة العربية وخيبة أملها ، فوقعت جثة هامدة بين الناس وبين أهلها واقاربها الذين كانوا يسمعون الانباء .

من لا يعرف ام جبران ؟

كانوا يتحدثون بمرارة ، وهذه ظاهرة تستحق التسجيل ، ولقد جاءت هذه المرارة وخيبة الامل كردة فعل على كبت العشرين سنة الماضية ، وعلى الآمال التي علقوها عندما أعلنت الحرب وبدأ القتال ، الى حد على حسب زعم النسوة ، ان بعض العائلات اليهودية كانت تطلب الحماية سلفا من معارفها العرب ، وكان السكان العرب على حد زعم النسوة يطمئنون اليهود ويعدونهم بالحماية في حالة وصول جمال عبد الناصر ، لانهم يعرفون ان جمال عبد الناصر وكل العرب لن يذبحوا احدا في حالة انتصارهم دون اضطهاد او اعتداء .

طال الحديث عن الالم وخيبة الامل ، واستعرض معظم الحاضرين مختلف احاسيسهم ومشاعرهم التي تصب وتدور في النهاية حول حقيقة واحدة ، ان عرب ما يسمى «باسرائيل» يرفضون الاحتلال البغيض ، وان الدولة المحتلة لم تقدم عبر العشرين سنة الماضية دليلا واحدا تشعر هؤلاء الناس بأنهم ليسوا غرباء في بلادهم ، كانوا يشعرون بأنهم مواطنون من الدرجة العاشرة بالرغم من كافة المظاهر والمناورات السطحية التي كانت تمارسها بعض الاحزاب من أجل استقطابهم باسم الدفاع عن مصالحهم وحماية حقوقهم ، كان ثمة ما ينقص كل هؤلاء الناس ، وهو أغلى من كل ما في الارض من كنوز ، وهو الاحساس بالكرامة ، الاحساس بالمواطنية ، الاحساس بأن من حقهم ان يحكموا أنفسهم في بلادهم وفي أرضهم ...

ونمنا تلك الليلة على همسات ووساوس هذه المشاعر والاحاسيس ، ولكن ليس قبل ان نسمع الكثير من الرفيقة سهام عن المستقبل والامل ، وضرورة النضال ، والبدء من جديد .. كانت سهام تمثل حالة عقلية ونضالية أرقى من كافة الموجودات والموجودين ، فهي ابنة سجون اسرائيل ومعتقلاتها ، وتشكل صمام امان في قلب المجتمع النسائي الفلسطيني في ظل الاحتلال .

١٢ تشرين اول ١٩٦٧ :

دق جرس الباب صباح هذا اليوم ليدخل «ابو جورج» ونحن نتناول قهوتنا مع موسى وسهام في انتظار اخبار الجماعة، وبالفعل صاح ابو جورج

بلهجة العارف : «الجماعة ينتظرونكم في البيت المجاور للمكتب» . نهضت سهام وطلبت الينا ان نتبعها ، ومرة اخرى سرنا في الشوارع الضيقة الى الشارع العام ، حيث ركبنا سيارة الاخ موسى وانطلقنا الى الجماعة ...

كان الصالون الذي دخلنا اليه يضم بعض قياديي الحزب الشيوعي في (اسرائيل) وبالذات العناصر التي تقود «الراكاح» وهو النصف المنشق نهائيا عن «الماكي» اسم الحزب الشيوعي قبل الانشقاق عام ١٩٦٥ ، والذي ما زال قادته يحتفظون له بنفس الاسم. كان الصالون يضم من قيادة «الراكاح» توفيق طوبي واميل حبيبي وسليم القاسم ومنعم جرجورة وتوفيق زياد وبعض الاخرين .

كانت هي المرة الاولى التي نلتقي فيها ببعض هذه الاسماء التي لمعت وعرفت عبر العشرين سنة الماضية في الوطن العربي ، هذه الاسماء التي كانت موضع اللعنة والنقمة عند الكثيرين من الفلسطينيين بسبب موقف الحزب عام ١٩٤٧ من التقسيم ، ومع مرور الزمن وعبر نضالهم الشاق ضد الصهيونية والحكم المحتل ، أصبح لهم تقديرهم واحترامهم في كثير من الاوساط الفلسطينية والعربية التي قدرت لهم مجموعة مواقفهم كما قدرت المظلة الواقية التي شكلها الحزب الشيوعي للفلسطينيين العرب في ظل الاحتلال .

كانت هذه الطليعة الصلبة ، بالرغم من خلافنا معها في صلب المشكلة واسلوب حلها وعلاجها تمثل هي ومن حولها قمة التحدي للحكم الاسرائيلي لاسيما بين عام ١٩٥٥ ــ ١٩٥٨ ، وهي الاعوام التي ارتفعت فيها موجة المد القومي في المنطقة العربية والتي رافقها التأييد السوفياتي الاممي بالمشاركة والممارسة استفاد هذا الحزب من شرعيته وانطلق يعارض الحكم بمختلف الوسائل ، وكان في كل الحالات والمراحل اكثر الاحزاب في (اسرائيل) قدرة على استقطاب الجماهير العربية هناك التي كانت بعضها تنضوي تحت رايته ايمانا بعقيدته في بعض الحالات ، واتقاء للخطر الصهيوني ومن أجل ايجاد الوسيلة للنضال والتعبير في حالات اخرى .

قال توفيق طوبي وهو من رواد الحزب الاوائل ومنظريه : «لقد ناضل الحزب تحت أسوأ الظروف في العشرين سنة الماضية ، ولقد تحكمت فينا عدة ظروف داخلية وخارجية ، استطعنا ان نتجاوزها دائما وأصبحنا وحدنا المعبرين عن آمال الجماهير العربية كلها في ظل الاحتلال ، وعن آمال بعض الجماهير اليهودية التي تطمع بالسلام ، ولقد رفعنا كل الشعارات التي

نعتقد انه من الممكن رفعها بما فيها حق الشعب الفلسطيني بتقرير مصيره ، وسنتابع النضال رغم الهزيمة التي منيت بها الانظمة العربية وعلينا جميعا ان نزيل هذا العدوان قبل ان يتكرس» .

سأله صاحبي : ألا تعتقد انها فرصة لطرح القضية من جذورها من جديد ، على ضوء تجربتكم في الاحتلال وعلى ضوء هذه الهزيمة التي منينا بها جميعا ؟ فنحن كما تعلم ننظر للقضية من زاوية اخرى بالرغم من فهمنا واستيعابنا للواقع الحالي الذي نمر به » .

قال توفيق طوبي : لقد كانت تجربتنا مرة في ظل الدولة الاسرائيلية ، وسنناضل طويلا من اجل تحقيق برنامجنا الديموقراطي في ظلها ، فالقوى الرجعية اليمينية العسكرية المتحكمة مدعومة بالامبريالية الاميركية . ونحن كما تعلم لنا منهج ودليل عمل ، وبغض النظر عن كل ما حدث في المنطقة فلسنا نرى أن هناك مجالا الان لاعادة النظر في صلب القضية كما تطرحون، ولكننا تخلصنا من شيء رهيب كان يثقل على صدورنا وهو الجناح المنشق «الماكي» من الحزب الشيوعي والذي ثبت بأنه عنصري وفاشي ويلتقي في التحليل النهائي مع الاحزاب العنصرية الصهيونية في اسرائيل» .

سألته بالتفصيل عن أسباب الانشقاق الذي تجسد عمليا عام ١٩٦٥ فقال :

«لقد حدث الانقسام بين الاعضاء اليهود أنفسهم ، وذلك بتأثير وضغط العقيدة الصهيونية عليهم ، كما ان النزاع الاسرائيلي العربي واستمراره أدى الى مزيد من التناقض في النظرة الى طبيعة المشكلة ، لاسيما وان «الماكي» أراد ان يبني حزبا شيوعيا اسرائيليا يؤيد الاوساط الحاكمة ويحرض على الاتحاد السوفياتي باسم الشيوعية . نحن نقول ان التناقض الرئيسي هو بين الاستعمار وبين الشعوب ، ولكنهم في مؤتمرهم الذي عقدوه في آب ١٩٦٥ طمسوا التناقضات الرئيسية وخلطوا بين مختلف التناقضات في العالم والمنطقة ، ووصلوا الى مقولة تزعم بأن التناقض الرئيسي هو بين «القومية اليهودية» والقومية العربية ، ونحن كما تعلم لا نعترف بالقومية اليهودية لاننا ماركسيون* حقيقيون . لقد حول جماعة «ماكي» نضال الحزب من محاولة لتغيير سياسة اسرائيل الى النضال ضد البلدان العربية ، وبالتالي التوسع والحرب وقد جاء الخامس من حزيران ليفضحهم لانهم لم يرفعوا شعار انسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة بل تكلموا عن سياسة اخضاع العرب من منطق القوة» ...

وهنا سكت توفيق طوبي ، ليتابع النائب اميل حبيبي الكلام فيقول : «لقد انفتحنا على الجماهير العربية هنا وساعدناها وحميناها واصبحت هي الدرع الواقي لنضالنا ، ولن ننسى في عيد العمال يوم اول ايار عندما انطلقت الجماهير الفلسطينية العربية تهدر متحدية السلطة التي حاولت ان تمنع مسيرتها ، فاشتبكت معها في قتال استمر طول النهار وقع فيه عشرات بل مئات الجرحى ، ولم تكن كل هذه الجماهير شيوعية ، ولذلك كان لا بد من التنسيق مع قياداتها الجديدة واقامة «الجبهة العربية» في اسرائيل» .

وتابع اميل حبيبي كلامه قائلا : « لقد حاول العرب في اول الاحتلال اقامة تنظيمات عربية مستقلة ولكن لم يكتب لها النجاح ، فلم تكن السلطات تسمح بقيام اي تنظيم عربي يستهدف تنظيم العرب في حزب مستقل قد ينقلب عليها في كل وقت ، كما ان القيادات التي تحركت لم تكن تتمتع بالسوية الثورية التي تسمح لها بالقيادة في مثل هذه الظروف الصعبة ، فقد حاول عربي من يافا يدعى ابراهيم ابو لبى وفشل ، كما حاول مواطن عربي يدعى داوود خوري من قرية المجيدل ففشل ، وحاول نقولا سابا من الناصرة وفشل ، وحاول المحامي محمد نمر الهواري رئيس حزب النجادة سابقا في فلسطين وفشل ، وحاول اخيرا عام ١٩٥٥ المحامي الياس كوسا ولم تكتب لمحاولته النجاح» .

واستطرد يقول : « لكن الاوضاع كانت قد بدأت تتغير ، وازداد النفس العربي باسرائيل بازدياد النفس القومي في الخارج ، واصبح يحس العرب انه لا بد ان يكون لهم تنظيماتهم الخاصة بعيدة عن التنظيمات والمؤسسات التي كانت تتبع حزب «المابام» و «الماباي» التي ــ وخاصة مع الحزب الاخير ــ كانت عميلة له بالضرورة » .

لقد اضطر الكثيرون من العرب ان يتعاونوا ــ كما اسلفنا ــ مع الحزب الشيوعي في اسرائيل ، فيحضرون مؤتمراتهم وندواتهم للاسهام معهم في منع الاضطهاد عن العرب ، وكان من أبرز هذه الشخصيات غير الشيوعية ، منصور كردوشي وطاهر الفاهوم والدكتور يوسف حداد ، ويني يني رئيس بلدية «كفريا سيف» ، وجبور جبور رئيس بلدية «شفا عمرو» وخالد عون الله ، ونور الدين العباسي وحبيب قهوجي والشيخ جمال الدين السعدي ومحمود السروجي والقس رفيق فرح وغيرهم وغيرهم وغيرهم . وقد تمخضت هذه الاجتماعات عن اقامة تنظيم عربي لمتابعة النضال بشتى الميادين ، وكانت الظروف ناضجة ومهيأة لمثل هذا العمل . وهكذا تألفت

لجنة تحضيرية من شكري الخازن رئيس المدرسة الارثوذكسية بحيفا ، والشاعر حبيب قهوجي لارسال الدعوات الى مختلف الشخصيات العربية . وبالفعل اجتمع نفر غير قليل من هذه الشخصيات الوطنية وتم الاتفاق أن تشكل الجبهة من العناصر القومية الوطنية مع الحزب الشيوعي ما دامت الاهداف المرحلية واحدة . وقد تم ذلك بعد نقاش طويل حدد فيه برنامج الجبهة العربية وصدر عنها بيان يعبر عن اهدافها ، عام ١٩٥٨ .

في المذكرات المقبلة نستعرض الخلاف في «الجبهة العربية» داخل اسرائيل بعد استعراض النشاط الذي أدته ، ثم نتطرق الى الحديث عن حركة الارض التي تحدث عنها الاسير الفلسطيني في ظل الاحتلال .

العدد السابع
٩ آب ١٩٧٢



الجبهة العربية
في أحاديث مع قادتها

١٤ تشرين اول ١٩٦٧ :

بعد مرور ثلاثة ايام على وجودنا في الناصرة ولقاءاتنا المتعددة مع كثير من الاطراف والمواطنين من مختلف النزعات والاتجاهات ، قررنا السفر الى حيفا مع مرافقنا الجديد «صالح» بعد ان وعدنا عناصر عربية من حزب «المابام» ان نعود فنلتقي بها في مناسبة اخرى في الناصرة او في غيرها ، لان هؤلاء الشباب العرب الذين ولدوا وترعرعوا في ظل الاحتلال وانخرط بعضهم في الاحزاب الاسرائيلية التي تنادي بالتعايش باسم التقدمية واليسار ، كانوا قد بدأوا يكتشفون كل الحقيقة مع الزمن ، وكانوا يرغبون بالمزيد من الحوار والحديث معنا ، وعدناهم ان نعود وحددنا معهم المواعيد.

كان «صالح» من العناصر العربية المستقلة التي تناضل من اجل اقامة التنظيم العربي الذي فشلت كافة المحاولات لاقامته في ظل الظروف القاسية تحت الحكم الاسرائيلي ، ولكن هذه العناصر قد بدأت تنشط مع مرور السنين وبدأ يشتد ساعدها بنمو حركة التحرر العربي في الخارج

في أواخر الخمسينات ومطلع الستينات ، وكانت هذه العناصر تبحث عن الاساليب والصيغ لتتمكن من ممارسة نشاطها الوطني في الظروف السيئة العصيبة للاحتلال . وكانت آخر هذه الصيغ التي توصلت لهـا الفئات القومية ان تدخل في جبهة واحدة مع الحزب الشيوعي المرخص والمعترف به رسميا من الدولة ، لاسيما وان الحزب الشيوعي كان يطرح الشعارات الوطنية في تلك المرحلة والتي كان يمكن اللقاء بها معهم في برنامج مرحلي «يسهل لهم مهامهم ونضالهم» على حد تعبير مرافقنا الجديد الاخ صالح .

كانت السيارة تتجه نحو حيفا و«صالح» يحدثنا عن هذه المرحلـة ويستفيض في الحديث ، لاسيما ومدينة حيفا بالذات كانت المركز الرئيسي «للجبهة العربية» التي ضمت التحالف الشيوعي العربي لمدة تزيد على العام وصل فيها النضال السياسي في اسرائيل الى ذروته . أخبرنا صالح بأنه سيجمعنا الى عدد من هذه الشخصيات والعناصر العربيـة المناضلة ، لنستمع الى قصة قيام «الجبهة العربية» والعوامل التي أدت الى الانشقاق الذي وقع في صفوفها وما نشأ عن هذا الانشقاق ..

كانت السيارة تمر من خلال قرى ومستوطنات يهودية جديدة عديدة، ولم يكن في بالنا ان نتوقف عند اية من هذه المستوطنات لضيق الوقت ، ولاننا لم نكن قد اتخذنا اية تدابير لمثل هذه الزيارة اذا كان لا بد منها ، ومع ذلك فقد شاء القدر ان نمر بتجربة بسيطة كانت ذات فائدة لنا ، فهنـاك وقرب المستوطنة «س» طرأ عطل على السيارة ولم نكن نبعد عن احـدى محطات البنزين كثيرا ، فوصلنا الى المحطة مشيا ، وكانت المحطة عبارة عن مطعم ومقهى . في نفس الوقت ، دخلنا الى المقهى ريثما يحاول صالح ان يستعين بأحد لاصلاح العطل ، وما كدنا نأخذ اماكننا على المائدة حتى رأينا صالح يعود لنا ويقدم لنا احد اقاربه الذين يعملون في المستوطنـة «س» والذي كان يمر بشاحنته على محطة البنزين .

ببساطة قال لنا «انطون» وهو قريب «صالح» انه عضو في حـزب المابام ويسمح لهم احيانا بالعمل في «الكيبوتزات» وفي «النحاليم» احيانا كعمال وأجراء . قال انطون : «انه محظوظ لانه يعمل كمساعـد لرئيس العمال ، وقد استطاع ان يدبر نفسه لانه على حسب تعبيـره يريد ان يعيش» .

دعانا انطون لدخول المستوطنة على مسؤولينه ، وقال يمكنكم التعرف عليها بحدود المعقول وسأعرفكم على بعض المعارف من الذين يعملون معنا

او نعمل معهم ، فاسمعوا اكثر مما تتكلمون . عاد صالح لاصلاح السيارة، وركبت انا وصديقي «ع» الشاحنة الى جانبه ودخلنا المستعمرة .. كانت الاشجار مزروعة على جوانب الطريق الطويل الذي يقودنا الى المستوطنة ، وبدأ انطون يلخص لنا المستوطنة بقوله : «هذا القسم الشمالي كله مزارع وبيارات صغيرة للفاكهة ولمختلف انواع الخضار ، اما القسم الجنوبي ، فهو عبارة عن مصانع صغيرة لمختلف انواع الحرف التي يستهلك معظمها في الداخل والتي يقوم بصنعها ابناء المستوطنات انفسهم ، ومثل هذه المصانع الصغيرة موجودة في كافة انحاء المستوطنات التي يحاول الحكم ان يوفر فيها كل انواع العمل ليشد الناس اليها ، ويحول دون اكتظاظهم وبقائهم في المدن وقد نجحت الخطة الى حد بعيد» .

وفي مكتب احد المسؤولين في المستوطنة من الذين يعمل معهم الاخ انطون وبعد ان قدمنا له كأقارب من الضفة الغربية ، قال لنا «روبين» وهو من المسؤولين في حزب المابام ، «اننا نرحب بكم ، ونؤكد لكم دعوتنا للسلام ، وان اخوانكم العرب يعملون معنا» ودعانا لزيارة بعض الاقسام في المزارع والمصانع الصغيرة ... رحبنا بالدعوة ، ومشينا الى جانبه ، وكنت حريصا ان الاحظ وجوه العاملين وردة فعلهم على زيارتنا .

لم يبتسم وجه «للضيوف الكرام» الذين هم نحن اثناء الطواف على هذه المصانع والمزارع ، كان روبين يقدمنا الى مدراء الاقسام ، وكان العمال يلتفتون قليلا ، يسمعون حديثنا بالعربية ، وكان الاستهجان والكراهية والرفض هي الانفعالات الاولى التي تبدو على ملامحهم قبل ان يديروا وجوههم لمتابعة العمل ..

ونادى روبين اثنين من العمال العرب، وسألهم ان كانوا سعداء بالعمل، وان كانت حقوقهم مؤمنة لهم ؟ وعندما نظر العمال نحوه ليجيبوا على سؤاله بالايجاب ، كانت هناك الف صرخة وصرخة مكتومة تنطلق من حناجرهم لتقول : كلا كلا نحن عبيد أجراء غرباء لا مكان لنا بينكم ، نعمل حتى لا نموت جوعا .. كان حول شفاههم اكثر من نداء مكبوت يقول لنا انقذونا ! انقذونا !! تذكرت كيف كنا نشعر ونحن في سجون بعض الدول العربية في الماضي ، وعندما كان يزورنا بعض الاقارب كيف كنا نخاف او نخجل من طلب المساعدة والانقاذ فكان النداء يرتسم على الوجوه والعيون.. كان العمال العرب في المستوطنات في سجون كبيرة لا علاقة لهم بما يجري ولا يعرفون ماذا يدور فيها ...

اوضح لنا انطون الذي اخبرنا ونحن نغادر المستوطنة ، ان مثل هذه المستوطنات هي عبارة عن ثكنات عسكرية لصنع الانسان اليهودي الجديد وتربيته وتعبئته على كراهية العرب الدخلاء والاستعداد دوما لابادتهم ، وطردهم من ارض اسرائيل ، وقد فسر لنا هذا النظرات الحاقدة التي كانت توجه لنا بشكل خاص من الصغار منهم الذين يتدربون على كراهية العرب وعلى حمل السلاح في وقت واحد بدون انقطاع او توقف ، وحيث يوجه لهم اعلام خاص وثقافة خاصة في كل يوم ، ان هذه المستوطنات وخاصة ما يكون منها اقرب الى الحدود (النحاليم) هي بالفعل معاقل الصهيونية الحاقدة التي تعمل على النفس الطويل لتحقيق الحلم الصهيوني المريض للسيطرة على الوطن العربي ان لم يكن على العالم .. معظم هؤلاء الصغار ابناء اليهود العرب الذين خرجوا من البلاد العربية الى اسرائيل...

في حيفا استضافنا اصدقاء صالح وأقمنا عندهم طيلة فترة ما بعد الظهر ، ونحن نحاول الاتصال ببعض المسؤولين في الجبهة العربية لنتعرف بهم ونستمع اليهم ، فلم يسعفنا الحظ في اليوم الاول لوجود بعض الاسماء التي يهمنا ان نلتقي بها خارج المدينة .. وقد وعدنا ان نراهم في اليوم الثاني او الثالث ، واقترح صالح ان يقوم بنا في جولة ضمن المدينة ومن ثم الى خارجها واقترح مدينة عكا وبلدة ناثانيا بالذات ، وافقنا على برامجه وتحركنا في مدينة حيفا ومعنا صديقان آخران ، امرأة ورجل .

لم تصدمني حيفا مثلما صدمتني مدينة يافا او الرملة ، حتى الاحياء العربية كانت تبدو فيها امارات الحياة والحركة ، اذا ما قارناها بالمدن الاخرى السابقة ، ومع انه من الصعب الفصل كثيراً بين الاحياء العربية واليهودية في حيفا ، الا انه من الواضح ان «الجيتو» العربي كان منطويا على نفسه لا تقارن فيه الحياة الى مثيلتها الصاخبة في مرتفعات جبل الكرمل الذي حوله الصهاينة الى وكر من أوكان المتعة العريضة للسواح وغير السواح من الراغبين ليلا نهاراً .

وفي مدينة عكا التي تضم حوالي التسعة آلاف عربي ، حيث تشتد وطأة الارهاب والاستفزازات ضد المواطنين العرب ، لاسيما بعد الخامس من حزيران ، ومن خلال الضابط الاسرائيلي «بن يستحاق» كان لا بد لنا من وقفة في هذ المدينة الباسلة التي يعيش سكانها في أوضاع سكنية سيئة للغاية حيث تنام الكثير من العائلات في بنايات مهددة في كل لحظة بالسقوط .

وفي بيت عضو البلدية العربي رمزي الخوري حدثنا كيف بدأت تخرج اسرائيل عن تحفظها وتستهتر بكل شيء ، حتى انهم في عيد الاستقلال بمرور عشرين عاما على احتلال مدينة عكا ، جرت الاستعراضات تحت شعار «عشرون سنة على تحرير عكا» مما جعل عضو البلدية رمزي الخوري يصرخ في وجه أحد الخطباء : «ممن حررتم عكا ؟ ان هذا الشعار يمس شعور العرب» . فأجابه نائب رئيس البلدية الاسرائيلي وهو من حزب المابام : «حررناها من الانكليز» فقال العضو العربي : «لم يكن هناك انكليزي واحد في عكا لدى احتلالها» فتدخل عضو المجلس الاسرائيلي ، واسمه «يختر» وقال «انت تعرف لماذا النقاش ، لقد حررت من العرب» .. وهكذا فقد سمعنا في هذه المدينة الصامدة الكثير من الاخبار وعرفنا الكثير من الاسرار حول اضطهاد الاسرائيليين للعرب وسوء معاملتهم .

وفي مدينة «ناثانيا» الاسرائيلية ، وعلى شط البحر ، في المقهى الواسع حيث جلسنا لتناول قدحا من القهوة ونتفرج عليهم وهم يروحون ويجيئون، حدثت مفاجأة اخرى لصديقي «ع» الذي كثرت مفاجآته في هذه الرحلة العجيبة الى ارض الآباء والاجداد العرب ، فبينما كنا نجلس والصمت يكاد يخيم علينا اذ برجل ومعه سيدتان يتقدمان نحونا بثياب الاستحمام ويقتربان من صديقي «ع» ويهتفان باسمه في حرارة بالغة . كان السيد «هرزغ» زميلا لصاحبنا «ع» في مدرسة الحقوق في القدس وكانت ترافقه زوجته وشقيقته وهي زميلة صاحبنا ايضا في مدرسة الحقوق .. جلسا بدون استئذان ، وبدأ حديث «السلامات» التقليدي والتاريخ الشخصي المنقطع.

قال «هرزغ» لصاحبي : «ماذا فعلت في العشرين سنة الماضية» ؟ قال صاحبي «تخرجت من كلية الحقوق ، ودخلت حزبا عربيا ، وسجنت عدة مرات ولم اتزوج» (وهنا نظر الى ساره نظرة غريبة فهمتها فيما بعد) واستطرد صاحبي حديثه قائلا : ومن ثم حصلت الحرب وها نحن في بلادنا . كان من الواضح ان السخرية تختلط بالجد في حديث صاحبي ، وان هناك مودة حقيقية تجمع بينه وبين أفراد هذه العائلة ..

قال «هرزغ» : اما انا فلم احصل على شهادة الحقوق ، لقد انضممت الى الجيش عام ١٩٤٨ ، وقاتلت في عام ١٩٥٦ ، وعام ١٩٦٧ ، وأنا املك اليوم مصنعا ودار سينما مع أفراد عائلتي وفي السنة الواحدة استنفر في حدود المائة الى المائة والخمسين يوما ، وأنا اعرف انك متألم من الهزيمة ولن ادخل معك في التفاصيل ، ولكننا باختصار كما كنت أقول لك في

الماضي هذه بلادنا تاريخيا ولقد استعدناها» . وراح يذكر صاحبي «ع» بالحوار الطويل والجدل الذي كان يجري بينهما في الماضي ... استأذن صاحبي بالانصراف ولم يتكلم شيئا ، وسرنا وراءه الى السيارة في شبه جنازة ..

وفي الطريق الى حيفا قال: «هل تعلم ان شقيقة هذا «الكلب» الاسرائيلي كادت تكون زوجتي ، لقد كانت حبي الاول المراهق وأنا في القدس ولم يكونوا متعصبين بهذا الشكل رغم كل ما قاله» .

قلت له : كيف تشعر الان ؟ قال : «بالرغم من ان الموضوع طوته السنون والايام لا اخفيك انني فوجئت برؤيتها ، ولكن الحب حالة عقلية ونفسية ، فلم اشعر حتى بصداقتها ، ولا يمكن ان أجدد هذه الصداقة مع انني شعرت انها كانت تعرضها عليّ من جديد» ...

١٥ تشرين اول ١٩٦٧ :

في صباح هذا اليوم قادنا مرافقنا «صالح» الى منزل في مدينة حيفا حيث اجتمعنا مع بعض المناضلين العرب من الذين اسهموا في بناء الجبهة العربية بالتعاون مع الحزب الشيوعي في اسرائيل ، كان الهدف من هذا اللقاء المزيد من الفهم والاستقصاء حول المحاولات العربية داخل اسرائيل في العشرين سنة الماضية ، للنضال ورفع الضيم والاضطهاد عن العرب هناك ، العرب الذين اصبحوا بين ليلة وضحاها الاقلية بعد أن كانوا اصحاب البلاد ، أبا عن جد .

استقبلنا في المنزل مجموعة من الاخوة العرب نذكر منهم منصور كردوش ، وشكري الخازن ، وحبيب قهوجي ، وهاني الفاهوم ، والدكتور عطاالله شيبان ومحمود السروجي وغيرهم .

كانت جلسة هامة ومفيدة ، تخللتها احاديث صريحة للغاية بالرغم من مرور السنوات الطويلة على قيام الجبهة وانفصال قطبي الرحى فيها وهما، الفئات القومية والحزب الشيوعي في اسرائيل الذي عاد وانشق هو بدوره كما أسلفنا سابقا .

اضطلعنا في هذا الاجتماع على دستور الجبهة لاول مرة، وعلى مجموعة البيانات والقرارات التي أقرها المؤتمر الذي عقدته في كل من عكا والناصرة

لتفوت على السلطات فرصة التخريب على المؤتمر الذي استعرض بشجاعة فائقة وضع السكان العرب بعد مضي عشر سنوات على حكم الاحتلال البغيض الذي لا تزال فيه الاحكام العسكرية مفروضة على حوالي مائتي الف عربي ، كما اعلن المؤتمر بدعوة من اللجنة التحضيرية اقامة «الجبهة العربية» تعمل في سبيل تحقيق الحقوق المشروعة للمواطنين العرب ، واطلاق سراح المعتقلين ، واعادة المنفيين والغاء الحكم العسكري واعادة القرويين الى قراهم ووقف سلب الاراضي وارجاع الاراضي المصادرة الى اصحابها واعادة اللاجئين الى اوطانهم ، كأداة لتوثيق التفاهم بين الشعبين وتقريب موعد حلول السلام في المنطقة .

وهنا انبرى الاخ حنا مسمار وهو مناضل متقدم في السن ليقول : «كنا نعرف سلفا ان الصهاينة لا يمكن ان يقبلوا بالتفاهم بين الشعبين ، او تحقيق الشعارات التي طرحناها ، ولكن نزولا عند رأي اخواننا في الحزب الشيوعي الذين كانوا يناضلون بصدق وافقنا على البرنامج والشعارات التي طرحت ، وها قد جاءت الايام لتثبت ان الصهاينة كذبة ، لا يمكن الاطمئنان لهم ولن يتوقفوا عن سياستهم التوسعية» .

وتحدث هنا السيد شكري الخازن عن محاولتهم لتقديم طلب الى حاكم اللواء بموجب قانون الجمعيات العثمانية ، ففشلت المحاولة ، فغيروا الاسم الى «الجبهة الشعبية الديموقراطية» فلم تتسلم ردا من حاكم اللواء ، ولكن الجبهة مارست اعمالها واصدرت نشرة تحمل اسم الجبهة، وبدأت الجماهير العربية تلتف من حولها ، وتشعر بأن لها قيادة عربية للمرة الاولى ، وانطلقت الجبهة تقيم لها الفروع في حيفا والناصرة وعكا ، وكفرياسيف والرملة واللد ، والبعنة والطيبة وعرابة وغيرها من المدن والقرى .

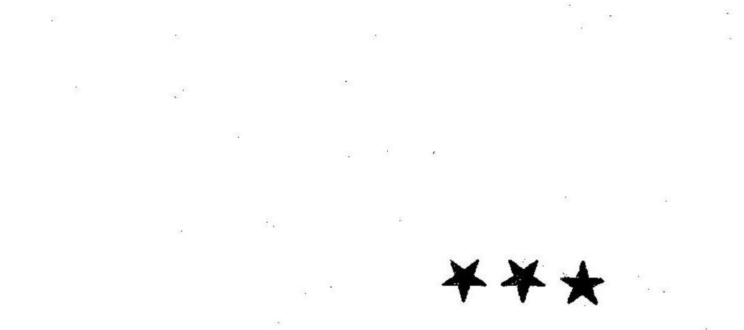
كانت الجبهة تستفيد من شرعية الحزب الشيوعي وصحفه ومطابعه ، وكان الحزب الشيوعي يستفيد من القاعدة العريضة للجبهة في صفوف العرب هناك ، وكان يساعد على كل ذلك بالطبع العلاقات بين الحزب الشيوعي وحركة التحرر العربي من جهة ، وبين حركة التحرر العربي والاتحاد السوفياتي من جهة اخرى .

وأضاف حبيب قهوجي ، «لقد تحركت الجبهة وفرضت وجودها لمدة عام واحد ، ولم يكن من السهل على السلطات ان تواجهها بالضرب العلني ضمن كل الاوضاع الذاتية والعربية والدولية الموجودة ، ولكن هذا الوضع لم يستمر اكثر من عام واحد ، فقد بدأت الغيوم تشوب حركة التحرر

العربية لقيادة عبد الناصر والاحزاب الشيوعية في المنطقة العربية . ففي اواخر عام ١٩٥٨ في بور سعيد هاجم عبد الناصر الشيوعيين وتبعهم عام ١٩٥٩ بخطاب آخر هاجم فيه عبد الكريم قاسم وحلفاءه الشيوعيين في المنطقة » .

كان الجناح القومي قد برز في الجبهة ولم يكن هناك مناص من الخلاف، فقد وقف الحزب الشيوعي الاسرائيلي الى جانب قاسم ، وجرت عدة محاولات لانقاذ الموقف ومنع الشيوعيين من الهجوم على عبد الناصر فلم تنجح لان الاحزاب الشيوعية في الخارج كانت في نظر الشيوعيين في اسرائيل تتعرض لهجوم كبير ولا يمكنهم الا التضامن معها ، وكان امام العناصر القومية ان تستسلم امام هذا المنطق فتفقد جماهيرها ، او ان تندفع الى الاحزاب الاخرى ، يأسا فتفقد هويتها وكلا الامرين يشكل خطرا على طموح ومستقبل الحركة القومية الصاعدة هناك .. ولذلك كان لا بد من الانشقاق .

في المذكرات المقبلة نذكر نشوء حركة الارض ونضالها في الوطن المحتل .



كنا نفكر بالنضال السلبي .. ولكن الجماهير سبقتنا : لقد انطلق الكفاح المسلح

١٧ تشرين اول ١٩٦٧ :

كنا في انتظار ان يجتمع شمل بعض العناصر القومية المبعثرة هنا وهناك في مدن وقرى فلسطين المحتلة ، وشجون الوطن بعد الهزيمة المنكرة التي لحقت بأمتنا ، عندما دخل «صالح» مرافقنا الشاب في رحلتنا المفيدة والناجحة حتى الان ، دخل صالح ليخبرنا ان ثمة رجلا عربيا من اصدقائه يدعى «عامر» وصل من مدينة نابلس يحمل رسالة خاصة لصاحبي «ع» ويصر على رؤيته .

استغربنا لمعرفته بوجود صاحبي «ع» في مدينة حيفا ، وساورتنا

الشكوك ، ورفضنا في باديء الامر ان نراه ، ولكن سرعان ما أكد لنا الاخ «زكي» بأن هذا الاسم معروف لديه ولا مانع من رؤيته ، وكان «زكي» هذا احد الشباب العربي الذين عاشوا في ظل الاحتلال ومن الذين اسهموا في انشاء «حركة الارض» التي سيجيء الحديث عنها فيما بعد .

التقينا «بعامر» الذي أكد لصدقي ضرورة عودته لمدينة نابلس للقاء «ابو عاصم» الذي يحمل له رسالة خاصة من «محمد رؤوف» الذي مضى على خروجه حوالي الشهرين من الضفة الغربية بعد ان خاض عدة معارك مسلحة ضد العدو الصهيوني استدعته على اثرها القيادة لترتيب أوضاعها في الخارج والتهيئة للانطلاقة من جديد ..

كانت هي المرة الاولى التي اسمع فيها بوجود التنظيم المسلح داخل الوطن المحتل ، ولم اكن اعرف ان لصاحبي «ع» مثل هذه الارتباطات ، لاننا كنا ندعو حتى الان كما سيظهر في المستقبل الى الكفاح السلبي المنظم ، ايمانا بفعاليته وجدواه في تلك المرحلة ، ولذلك فقد اظهرت استيائي من صاحبي «ع» الذي يعمل من وراء ظهري ، كما ثبت لي بأنه عضو في تنظيم يعمل منذ ١٩٦٥ في الخارج والداخل ..

وفي الطريق الى القدس قال لي صاحبي «ع» كل شيء عن التنظيم العسكري بعد ان استمعنا الى تقرير من الاخ «عامر» عن سلسلة العمليات العسكرية التي ستخوضها المقاومة المسلحة في الارض المحتلة ، ووجدت نفسي امام الامر الواقع اتحدث وأناقش بعض وجهات النظر حول الموضوع، وللحقيقة فقد كنت اميل الى التريث والاستعداد ، وخاصة فقد كنت المس وأحاول تفهم نفسية الشعب بعد الاحتلال مباشرة وردود الفعل المختلفة للعنف الثوري الذي كان العدو يقابله بالسحق والذبح ، وكنت أفضل ان ننظم البلاد للمقاومة السلبية كما نصحنا بعض اصدقائنا التقدميين من ابناء الارض المحتلة ، ثم نعود الى تصعيد الكفاح بالسلاح ..

ولكن يبدو انه لم يكن لي الخيار في اخذ القرار حول هذا الامر ، فقد بدأت الممارسة منذ زمن وهي في طريقها الى التصعيد، وكأنما جاءت الاقدار لتقنعني بالواقع فقد اوقفت سيارتنا بين مدينة القدس ورام الله ، قرب بلدة قلنديا ، وتعرض رتل من السيارات لعملية تفتيش قاسية على اثر تفجير «لغم» في الطريق المؤدي للمطار واطلاق النار على دورية اسرائيلية مساء تلك الليلة .

كانت عملية التفتيش مزرية ومذلة ورهيبة معا ، ولم اكن بعد مهيأ

لمواجهة مثل هذه الحالة ، وربما كنت وجدت الامر ايسر علي لو لم اكن مع من انا معهم من رجال الكفاح المسلح ، الذين كانت اعصابهم باردة وهادئة ، ادركت في هذه اللحظة قيمة الاستعداد والتهيئة والتعبئة النفسية لمن يريد ان يسهم في هذه الامور ، ولا انسى حتى الان معنى هذا الفهم لضرورة التدريب والتعبئة العسكرية والنفسية منها ، وهكذا طلبت من صديقي «ع» ان ينزلني مدينة رام ـ الله ، ويستأنف رحلته الى نابلس ليتصل بمندوب محمد رؤوف على ان اتولى انا مع بقية الاخوان في القطاع المحتل تنظيم المقاومة السلبية ودراسة كل جوانبها مع اخواننا عرب الارض المحتلة ، وكان لا بد من فهم ودراسة كافة المحاولات التي جرت في الماضي لاسيما تجربة «حركة الارض» التي كنا قد رأينا بعض أعضائها وتعرفنا عليهم وتواعدنا على اللقاء في حيفا .

١٩ تشرين اول ١٩٦٧ :

في مدينة رام ـ الله التي لم أغب عنها اكثر من اسبوعين متنقلا في ارجاء فلسطين للمعرفة والدراسة ، لمست بعض التغييرات البسيطة ذات المدلولات الكبيرة في قلب المجتمع الحساس الذي يعج بالمثقفين من اطباء ومحامين وصيادلة ، وكلهم بدون استثناء عمل في الحقل العام بصيغة او بأخرى ، وما زال قادرا على التأثير سلبا او ايجابا في المواطنين الذين كانوا يرفضون الاحتلال بأغلبيتهم الساحقة ، باستثناء بعض العملاء المعروفين في كل عهد ، وبعض المرتزقة الذين كانوا يحاولون الانتفاع بالاحتلال .

زرت تجمعات اخواني المثقفين ، فوجدتهم قد قطعوا شوطا بعيدا في تنظيم المقاومة السلبية على امتداد مدن وبلدان الضفة الغربية ، كانت هناك عدة محاولات مخلصة لاعطاء عملهم طابع السرية، ولكن هذه المحاولات ذهبت أدراج الرياح ، فلقد كثرت الاعتداءات والتجاوزات الاسرائيلية مما كان يدعو الى عقد سلسلة من الاجتماعات المكشوفة في رام ـ الله ، والقدس ، ونابلس ، وطولكرم ، والخليل ، وبيت لحم وغيرها وغيرها من المدن . كانت هناك قضايا التعليم ومحاولة اسرائيل تغيير البرامج الدراسية والمناهج العربية للصفوف الابتدائية والثانوية ، وكانت هناك الاجراءات المتتابعة لمصادرة الاملاك ، بحجة قانون الغائبين وغيرها من القضايا التي تكشف نوايا

الصهيونية في السيطرة على البلاد وتهويدها . امام كل هذه القضايا لم يكن من السهل المحافظة على سرية العمل لاسيما لانه كان لا بد ان تتصدى العناصر القيادية المتوفرة في الضفة الغربية للكفاح ضد هذه المحاولات .

وقد ترك الصهاينة المدى لهذه العناصر وتحملوا تحركها في بادىء الامر، لمراقبتها وكشفها ومعرفة مدى نفوذها وتأثيرها في الاوساط الشعبية قبل ان تبدأ عملية المطاردة والنفي والسجن داخل اسرائيل للبعض ، ثم الابعاد عبر الجسر للبعض الاخر .. «وسيأتي الحديث في هذه المذكرات عن تجربة المقاومة السلبية وكيف أخمدت من قبل السلطات» .

شيء آخر لمسته في المدينة هو الحديث عن حركة الكفاح المسلح ، وأهميتها وضرورة تصعيدها ، والقناعة بان هؤلاء الكلاب لن يخرجوا الا اذا دخلنا معهم في معارك مسلحة وقاتلناهم ..

وكانت تكثر الاحاديث والاشاعات عن عمليات متفرقة تحدث هنا وهناك، مما اصبحت تقلق اسرائيل ، فترد عليها بالبطش والسحق وهدم البيوت، والسجن بالعشرات لكل من يشتبه بهم ، ومن بعض الاخبار التي تناقلها الناس في المدينة في تلك الايام ، ان الجيش طوق منطقة في البلدة القديمة في مدينة رام الله بحثا عن «العناصر المخربة» كما كان وما زال يسميها العدو ، فدخلوا الى غرفة في احد البيوت ووجدوا فيها بعض المناشير التي كانت تحمل شعارات الثورة المسلحة ، كما وجدوا قليلا من الاسلحة ، ولما استجوبوا صاحبة البيت قالت : «لقد كان يقيم هنا معلم مدرسة اسمه محمد رؤوف وانني لا اعرف عنه شيئا ، وانه خرج فقط منذ نصف ساعة ودفع لها الاجر وقال بأنه لن يعود» .

حاولت ان اربط بين احاديث الناس وبين ما سمعته قبل يومين من عامر ، فأدركت ان صاحبنا ما زال في الداخل ، ولم اكن اعرف ان محمد رؤوف هذا هو الشخص الذي سيلعب دورا هاما في ازعاج اسرائيل واقلاق راحتها . وصرت اترقب عودة صاحبي «ع» لافهم وأعرف منه الكثير عن ذلك .

٢١ تشرين اول ١٩٦٧ :

وصل «صالح» صباح اليوم ، وأخبرني أن علينا ان نعود الى حيفا ، فالاخوان هناك ، وعلى استعداد لمقابلتك انت وصاحبك كما ان لهم عدة

ملاحظات على أسلوب العمل في الضفة الغربية يحبون نقلها اليكم .

كنت اتطلع بشوق وفضول الى التعرف على هذه المجموعة من الشباب القومي الذين عرفوا «بجماعة الارض» او حركة الارض ، هؤلاء الشباب الذين يرمزون في التحليل النهائي الى الحقيقة الوحيدة ، التي لم تستطع ان تعبث بها اسرائيل ، او تزيفها او تتحايل عليها ، وهي ان الانسان العربي الذي بقي في ظل الاحتلال ما يزيد على العشرين عاما ، ظل عربيا قوميا ، لم يذبه الضغط ولا الاحتلال ، ورفض الخضوع بل رفض التعايش مع الغزاة الصهاينة الذين حاولوا على السطح ان يغروه بشتى الوسائل ، ولكنه أدرك بحسه القومي ان المحاولات تجري لابادته وأبادة قوميته وصهينته .

التقيت هؤلاء الشباب ، وكانت تجربتهم المرحلية قد اخذت مداها بين عام ١٩٥٨ وعام ١٩٦٥ وبعد ان مروا بتجربة غنية رائعة في ظل الاحتلال ، استنفدوا فيها كافة الوسائل للتعبير عن وجودهم ، وتأكيد قوميتهم وعروبتهم تحت اسوأ احتلال عرفه التاريخ ، فتركوا عبر تجربتهم آثارا خالدة لا تمحى على الزمن تعطي الامة العربية جمعاء فكرة عن امكانيات ابنائها المستضعفين تحت اسوأ الظروف وعن قدراتهم في تحدي الموجة الصهيونية الامبريالية المحتلة ..

كانوا كلهم هناك في انتظارنا: منصور كردوش ، وحبيب قهوجي ، وحنا مسمار ، ومحمود السروجي ، وزكي دياب البحري ، وتوفيق سليمان عودة ، ومحمد عبد الرحمن ، وغيرهم وغيرهم من الجيل الطالع الذي يفهم بالضبط معنى الغزوة الصهيونية وأبعادها ، ويفهم بالضبط انه لا مجال للمساومة ولا للحلول الوسط، ولا مجال لتزييف الشعارات واللف والمناورة، لقد حاولوا فيما مضى ان يكسبوا شيئا من الشرعية بالانضواء تحت الجبهة العربية الشعبية التي ضمتهم والحزب الشيوعي في اسرائيل ، ولكنهم سرعان ما وجدوا ان من حقهم بل واجبهم التعبير عن شعاراتهم وأهدافهم القومية مهما كلف الامر ، لاسيما بعد ان فشلت الجبهة العربية للاسباب التي ذكرناها في مذكراتنا السابقة .

حدثني الاخوة عن الاضطهاد الذي كان يلاقيه المواطنون العرب والذي كان يفرض عليهم لمجرد كونهم عربا ، بغض النظر عن انتمائهم الطبقي او الديني ، ومن هنا كانت السلطة دوما تسعى الى ابقائهم مبعثرين بشتى الوسائل والطرق ، كما كانت تسعى الى اختراق التجمعات العربية ، باغرائها وتنسيبها للاحزاب الصهيونية في اسرائيل ، ومع ذلك بقيت

الجماهير ورغم كل ذلك محافظة على هويتها تتحرك من ضمن التيار العربي المتصاعد في الخارج والنامي في الداخل .

حدثني الاخوة عن الارض ، وكيف نشأت التسمية من رمز الوجود العربي المرتبط بالارض ، ومن خلال فهمهم للمعركة الاساسية بين حركة التحرر العربي والحركة الصهيونية التي تقوم في الاساس على الارض الفلسطينية العربية . هكذا قرروا ان يطلقوا على صحيفتهم اسم الارض تعبيرا عن التمسك بها والدفاع عنها فراحت الجماعة تعرف بجماعة الارض.

لقد قرأت في هذه الجلسة معهم البيان الأول الذي اصدره المؤسسون الذين تداعوا لانشاء الجريدة ومن ثم الحركة ، والذي يشرحون فيه اهدافهم بكل وضوح ، والذي يعتبرون انفسهم فيه اصحاب البلاد لانهم طالبوا بوضوح من قادة ما يسمى «باسرائيل» اذا كانوا يرغبون للشعب اليهودي العيش بسلام في البلاد بأن ينهجوا سياسة الحياد الايجابي والتعايش السلمي مع العرب بقطع علاقتهم بالفكر الصهيوني والحركة الصهيونية العالمية ، وان يعترفوا بحركة التحرر العربي وقوتها في تقرير مصير المنطقة ، وان يعترفوا بحق تقرير المصير للفلسطينيين وكامل عودتهم لديارهم .

من هذا المنطلق تحرك شباب حركة الارض مطالبين بالترخيص لهم ولجريدتهم بشتى الوسائل ، فأقاموا الارض من حولهم ولم يقعدوها لمدة سبع سنوات دخلوا فيها السجن والمعتقلات وعانوا من الاقامات الجبرية في منازلهم ، والتفتيش والمضايقات والملاحظات ، مما ادى الى بحث قضيتهم اكثر من مرة في مجلس الوزراء الاسرائيلي واعلان عدم شرعيتهم في اكثر من مناسبة باسم المسؤولين واجهزة الصحافة والاعلان .

ففي عام ١٩٦٠ عقد «شموئيل ديفون» مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية مؤتمرا صحفيا هاجم فيه قيادة الحركة وأتهمهم بثلاثة صفات : الاخلاص وعدم القابلية للفساد ، والعناد . ولما تقدمت القيادة لتسجيل «شركة باسم الارض» يمارسون من خلالها نشاطهم ، رفض حاكم اللواء بموجب قانون الطوارىء ، فرفع الامر الى القضاء وكاد ينقسم القضاء الاسرائيلي حول الموضوع لانها بادرة خطرة ان يمنع المواطنون من تسجيل شركة ، وبعد صراع طويل في المحاكم قررت السلطة التشريعية منحهم ترخيصا للشركة لانقاذ مظهر الديموقراطية في البلاد ولامتصاص نقمة العرب في اسرائيل ، ولكنهم لم يسمحوا لها بالممارسة وطاردوا رجال الحركة واعتقلوا بأكثر من تهمة .

ولعل من اكثر ما اثار نقمة السلطة على حركة الارض المذكرة التي ارسلتها الحركة الى الامين العام للامم المتحدة بتاريخ ٢٣ حزيران ١٩٦٤ وضمنتها ظلامات الشعب العربي الفلسطيني تحت الاحتلال ، وقد ارسلت نسخ من المذكرة الى شخصيات عالمية مثل برتراند راسل ، وتوينبي والى الصحف العالمية وسفارات الدول الاشتراكية والغربية ، واعضاء الكنيست انفسهم . مما أدى الى شن هجمة شرسة من التحريض والارهاب ضدهم وضد كل العرب في اسرائيل . واشتركت في الحملة كافة الصحف وأجهزة الاعلام وأتهمت الحركة بمختلف النعوت والاوصاف ، ولكن «هعولام هزة» وهي جريدة «اوري افنيري» والتي اشتركت في الحملة اضافت تقول «انه بالرغم من الحملة والارهاب الذي شن ضد «حركة الارض» يبقى كل ما جاء في مذكرتهم صحيحا» .

وبتاريخ ٣٠-٦-١٩٦٤ وبعد ارسال المذكرة الى يو ثانت والاصداء التي تركتها المذكرة ، اعلمت جماعة الارض وزارة الداخلية عن تأسيس حركة سياسية تعرف باسم «حركة الارض» . ولكن حاكم اللواء في حيفا كتب اليهم في ٢٤-٧-١٩٦٤ يرفض تأسيس الحركة ، ويتهمها بأنها تمس كيان الدولة وسلامتها . وفي نفس الليلة اذاع راديو العدو ان مجلس الوزراء تبنى رفض حاكم اللواء لاقامة الحركة وأشار الى مدى خطورة مثل هذه الحركات السياسية في البلاد .

بعد هذا قامت السلطات بحملة اعتقالات واسعة في صفوف الحركة ، واتهمت بعض اعضائها بالاتصال بالعناصر المسلحة التي كانت تأتي عبر الحدود للتخريب داخل اسرائيل ، واتخذت المناسبة سببا لمصادرة الشركة وأموالها ، ووضع معظم القادة بالاقامة الجبرية في البيوت من ساعة الغروب حتى شروق الشمس في اليوم التالي. واستمر الحال على ذلك المنوال لمدة سنة اختمرت في رأس قيادة الحركة المحظورة فكرة خوض المعركةالانتخابية التي كانت ستجري عام ١٩٦٥ بنية كسب بعض الشرعية من خلال البرلمان والقدرة على الحركة والنضال من اجل اهداف القضية والشعارات التي تنادي بها حركة الارض .

تحمس العرب في اسرائيل للفكرة ، وبدأوا يتكتلون حول القائمة التي شكلها قادة الحركة باسم «قائمة الاشتراكيين» ولكن السلطة بدات تضع العراقيل في وجههم ، فنفت اعضاء القائمة الى اماكن مختلفة في اسرائيل، مما زاد في شعبيتهم والدعاية لهم . الا ان لجنة الانتخابات التي تضم ستة وعشرين عضوا يمثلون كافة الاحزاب والكتل وبعد البيان الثوري الذي انزلته

الحركة باسم «قائمة الاشتراكيين» «ض» التي ترمز الى الارض ولغة الضاد ، رفضت ان توافق على نزول القائمة بايعاز من الدولة بحجة انها ضد الدولة ، كذلك حكمت محكمة العدل العليا لمصلحة الدولة فمنعت الحركة من الاشتراك في الانتخابات ، واشتدت مطاردتها ، فانهيت كتنظيم مادي ملموس ، وبقيت كأفكار وكرمز وكأشخاص تركت ابلغ الاثر في المواطنين العرب هناك .

كانت فرصة لي ايضا ان اضطلع على مجموعة الاثني عشر عددا من مجلة الارض التي صدرت هناك تحمل وتمثل الفكر القومي التقدمي السليم .

بعد اربع سنوات من هذا التاريخ اعتقلت السلطات الاسرائيلية اكثر من مائة وخمسين شابا من عرب اسرائيل وأدانتهم المحاكم العسكرية بتهمة التعاون مع المنظمات الفدائية الفلسطينية .. كان هؤلاء من شباب حركة الارض .

★★★

بالعشرات حصد العدو العائدين الى أرضهم عبر «مخاضات» نهر الاردن ..

١٠ تشرين الثاني ١٩٦٧ :

اكتب اليوم من قريتي الوادعة الصغيرة التي تجثم على السفح بين اربعة جبال عالية ، أحاول ان استعيد تجربتي عبر الاشهر القليلة الماضية في ظل الاحتلال ، كما احاول ان اختفي عن العيون لبعض الوقت ، حتى لا ينكشف امري ، فاضطر الى مغادرة البلاد نفيا وطردا كما حصل مع بعض الاخوة ، او مللا وسأما من متابعة الشين بيت وهو الاسم الذي يطلق على المخابرات الاسرائيلية ..

استعرضت بيني وبين نفسي تجربتي المؤلمة التي مررت بها منذ الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ حتى يومنا هذا ، فوجدت انني بالرغم من قصر هذه المدة عرفت الكثير وتعلمت الكثير ، كما ازدادت قناعتي بأننا دخلنا او ادخلنا الحرب مع «اسرائيل» دون ان نعرف الكثير مما يجب ان نعرفه عنها كمجتمع

عسكري ، له ملامح المجتمع السياسي والاقتصادي .

وكان فضولي ما زال مركزا على عرب الارض المحتلة عام ١٩٦٧ ، فمن خلالهم ، ومن خلال معاناتهم ونضالهم ، بدأت اتعرف على الكثير من اساليب الصهاينة ووسائلهم في الحكم والحياة ، كما بدأت انا وزملائي نفهم وندرك ونتعلم عبر اتصالاتنا المتكررة بهم كيف نجابه أسرائيل في محنتنا الجديدة وبالوسائل القليلة التي نملكها .

كانت هناك عدة آراء واقتراحات تقدم لنا على ضوء تجربتهم في العشرين سنة الماضية ، كانوا في اغلبيتهم الساحقة قد حسموا بعدم امكانية التعايش مع الصهاينة وفي ظل دولتهم العنصرية ، وحتى المعتدلين منهم ، وحتى المواطنين العاديين الذين لم يعملوا في الحقل العام والذين كانوا يجهدون من اجل تأمين معيشتهم الشخصية ، وصلوا الى مثل هذه القناعة ، فقد شملهم الاضطهاد ، ولمسهم التمييز العنصري ، وكان الواحد منهم يصاب في النهار اكثر من مرة ويدفع ضريبة انتمائه الى الامة العربية من كرامته ، وشرفه ، وأعصابه ومزاجه ، ولهذا فقد كان يتصاعد الرفض في كل يوم ، وتنمو الاحقاد بين صفوف العرب ، هذه الاحقاد التي كان ينبه لها بعض المفكرين والمثقفين اليهود أمثال يوري افنيري ، والبروفسور دان ميرون وغيرهما ، ولكن القادة الصهاينة كانوا يصمون آذانهم عن مثل هذه التنبيهات ويمعنون في اذلال العرب واحتقارهم حتى تبلورت الحركات المعادية للكيان الاسرائيلي من جذوره ، وتكرس الانقسام نهائيا في ما يسمى بالمجتمع الاسرائيلي على نحو ما اسلفنا وذكرنا في هذه المذكرات .

١٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ :

ما زلت اكتب من قريتي ، وبين يدي مجموعة احصاءات وأرقام مذهلة عن الاعتداءات والمخالفات الاسرائيلية في الاشهر الخمسة الماضية ، وصحيح انني عشت فترة العدوان والاغتصاب هذه ، وسمعت الكثير من القصص التي تشبه الخيال عن التعذيب والطرد والاجلاء الجماعي ، الا انني كنت احيانا اتصور ان بعضها مبالغ به ، لولا وجود هذه الوثائق بين يدي والتي دونها اكثر من رجل عالم يقيم في الضفة الغربية ، وبعد تحقيقها وتمحيصها ، ولولا ان جزءا كبيرا من هذه المعلومات نقلته الصحافة العالمية من خلال بعض

عسكري ، له ملامح المجتمع السياسي والاقتصادي .

وكان فضولي ما زال مركزا على عرب الارض المحتلة عام ١٩٦٧ ، فمن خلالهم ، ومن خلال معاناتهم ونضالهم ، بدأت اتعرف على الكثير من اساليب الصهاينة ووسائلهم في الحكم والحياة ، كما بدأت انا وزملائي نفهم وندرك ونتعلم عبر اتصالاتنا المتكررة بهم كيف نجابه اسرائيل في محنتنا الجديدة وبالوسائل القليلة التي نملكها .

كانت هناك عدة آراء واقتراحات تقدم لنا على ضوء تجربتهم في العشرين سنة الماضية ، كانوا في اغلبيتهم الساحقة قد حسموا بعدم امكانية التعايش مع الصهاينة وفي ظل دولتهم العنصرية ، وحتى المعتدلين منهم ، وحتى المواطنين العاديين الذين لم يعملوا في الحقل العام والذين كانوا يجهدون من اجل تأمين معيشتهم الشخصية ، وصلوا الى مثل هذه القناعة ، فقد شملهم الاضطهاد ، ولمسهم التمييز العنصري ، وكان الواحد منهم يصاب في النهار اكثر من مرة ويدفع ضريبة انتمائه الى الامة العربية من كرامته ، وشرفه ، وأعصابه ومزاجه ، ولهذا فقد كان يتصاعد الرفض في كل يوم ، وتنمو الاحقاد بين صفوف العرب ، هذه الاحقاد التي كان ينبه لها بعض المفكرين والمثقفين اليهود أمثال يوري افنيري ، والبروفسور دان ميرون وغيرهما ، ولكن القادة الصهاينة كانوا يصمون آذانهم عن مثل هذه التنبيهات ويمعنون في اذلال العرب واحتقارهم حتى تبلورت الحركات المعادية للكيان الاسرائيلي من جذوره ، وتكرس الانقسام نهائيا في ما يسمى بالمجتمع الاسرائيلي على نحو ما اسلفنا وذكرنا في هذه المذكرات .

١٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ :

ما زلت اكتب من قريتي ، وبين يدي مجموعة احصاءات وأرقام مذهلة عن الاعتداءات والمخالفات الاسرائيلية في الاشهر الخمسة الماضية ، وصحيح انني عشت فترة العدوان والاغتصاب هذه ، وسمعت الكثير من القصص التي تشبه الخيال عن التعذيب والطرد والاجلاء الجماعي ، الا انني كنت احيانا اتصور ان بعضها مبالغ به ، لولا وجود هذه الوثائق بين يدي والتي دونها اكثر من رجل عالم يقيم في الضفة الغربية ، وبعد تحقيقها وتمحيصها ، ولولا ان جزءا كبيرا من هذه المعلومات نقلته الصحافة العالمية من خلال بعض

المراسلين والكتاب والزوار الاجانب الذين لم يسمح لهم وجدانهم ولا ضمائرهم ان يسكتوا عن هذه البشاعات فنقلوها الى الخارج بأسمائهم وبكتبهم وصحفهم .

ففي الثالث عشر من شهر حزيران عام ١٩٦٧ نشرت صحيفة الجارديان البريطانية ان ما يزيد على مائة الف فلسطيني اي حوالي عشر سكان الضفة الغربية قد طردوا من البلاد ودفعوا بالقسر والقوة نحو الضفة الشرقية .

ولقد كان مثل هذا النزوح موضع تساؤل في كثير من الاوساط العربية والاجنبية في بادىء الامر ، لاسيما بعد التجربة التي مر بها الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨ . ولكن البراهين القاطعة والشهود وكل من عاش تلك الفترة هنا يستطيع ان يؤكد ان المخطط الاسرائيلي كان يستهدف عملية الاجلاء هذه وقد استعمل لها كل الاساليب الوحشية التي يمكن ان تستعمل مع شعب أعزل من السلاح .

وحول هذا الموضوع ذكرت كافة وكالات الانباء العالمية على لسان اربع من اعضاء مجلس النواب البريطاني وهم ايان جلمور ودنيس والترز وكولين جاكسون وروبرت ماكيلان بأنهم شاهدوا الآلاف المؤلفة من اللاجئين يتجهون نحو شرق الضفة ، كما اكدوا ان مخيما قرب مدينة اريحا كان يأوي حوالي الثلاثين الف نسمة ، اصبح فارغا من كل ابنائه في الخامس والعشرين من شهر حزيران ، وأضافت «الاسوشيتدبرس» ان اسرائيل لا تشجع الناس على الخروج فقط ولكنها تطلق النار عليهم لارهابهم ، وتخاطبهم بمكبرات الصوت وتحضر لهم السيارات ، وتدفعهم بالعنف والارهاب للخروج . قال النواب الاربعة ايضا وبلسان الصحف البريطانية ووكالات الانباء «لم نشاهد احدا يسمح له بالعودة الى الضفة الغربية ، وكان الرحيل القسري دائما نحو الشرق» .

في الثاني والعشرين من شهر حزيران ١٩٦٧ نقلت «الاسوشيتدبرس» من قلب مدينة قلقيلية ان الاسرائيليين قد نسفوا وهدموا قسما كبيرا من المدينة بمنازلها وأحيائها ، وان السكان يعيشون في الجوامع والمدارس . وفي السادس والعشرين من الشهر نفسه نشرت النيويورك تايمس اقتراحا للسفاح «بن غوريون» يطلب فيه هدم أسوار مدينة القدس التاريخية ، بالاضافة للقرار الذي كان قد اخذ بهدم حي المغاربة وتشريد الآلاف المؤلفة من العائلات .

كانت انباء وأخبار الطرد والتشريد والتعذيب المدونة امامي في الوثائق

ما زالت تنبض بالحياة وأنا اقلب صفحاتها لاتابع القراءة والتدوين للعبرة والتاريخ ولاطلاع شعبنا في المستقبل عن خطر هذه الموجة البدائيـــة الصهيونية حين وقعت عيني على وثيقة ممضية بأسماء بعض موظفي وكالة الاغاثة في غزة التي تؤكد ان مائة وأربعة وأربعين بيتا قد هدمت وجرفت بالجرافات في ليلة واحدة . وبالرغم من ادعاء الصهاينة ان احدا لم يقتل ، فقد أكد موظفو وكالة الغوث في الوثيقة ان ما يزيد عن الثلاثين جثة وجدت في قبر جماعي واحد ، عندما نبشوا القبر باشراف الصليب الاحمر ، وقد أكد هذه الرواية فيما بعد الصحفي البريطاني دافيد هولدن ونشرتهـــا صحيفة «الساندي تايمس» البريطانية في التاســع عشر من شهــــر نوفمبر ١٩٦٧ .

ولعل من اكثر ما قرأت اثارة عن هذه الفترة وفيه ما يدين الصهاينة كبرابـرة وسفاحين ونازيين ، مـا كانت تنشره بعض الصحف والنشرات الصغيرة التي تصدر في اسرائيل من قبل عناصر يهودية ، تزعم انها ضد الحركة الصهيونية . فمجلة «نيحاس» التي يحررها كل من دان اومـــر واري بابر كانت تنشر الكثير من قصص الذبح الجماعي الذي كان يمارسه الصهاينة . كما كانت تفعل ايضا «نشرة الانباء العالمية الاسرائيلية» وكان هؤلاء الناس ينطلقون كما يبدو من قناعة ان مثل هذه الاعتداءات ستعود على اليهود انفسهم في المستقبل ، كما عادت على النازيين بعد الحرب ، بحيث اصبح لا يتمكن اي مواطن الماني من الدفاع عن نفسه او التهرب مـــن مسؤوليته عن ذبح اليهود في المانيا .

وبالرغم من تقيمنا لمثل هذا الكلام فقد حملت مثـــل هاتين النشرتين الكثير الكثير منه ، وحذرت ونبهت الى خطورته ، وكان من اهم ما قامت به التقرير الذي رفعه شاهد عيان اسرائيلي لاسرة تحرير المجلة ، والذي تقدمت به للسلطات في تل ابيب في العاشر من ايلـــول ، ثم عادت «نشرة انباء اسرائيل العالمية» فنشرته على صفحاتها في آذار عام ١٩٦٨ .

والتقرير يتعلق بالقطاع المحتل على نهر الاردن بين اليرمـــوك وجسر اللنبي ، قدمه جندي اسرائيلي رفض ذكر اسمه خوفا من السلطات وهذا نصه مترجما بالحرف :

«في كل ليلة يحاول بعض الفلسطينيين العرب ان يتسللوا من الضفة الشرقية الى الضفة الغربية ليعودوا الى منازلهم وعائلاتهم ، بعد ان خدعتهم الحكومة الاسرائيلية لاشهر طويلة ولم تسمح لهم بالعودة المشروعة . وكنا

نغلق الممرات عليهم ، بمعنى كنا نقفل الاماكن التي يكون فيها الماء قليلا لمن يحاولون العبور مشيا على الاقدام، وكان الضباط يأمروننا باطلاق النار عليهم وقتلهم دون انذار ، كنا نفعل هذا كل ليلة على الرجال والنساء والاطفال ، حتى في ليالي القمر التي كنا نستطيع ان نميز فيها الصغار من الكبار من مواقعنا القريبة ، كنا نطلق النار عليهم ونقتلهم بدون تمييز . وفي الصباح كنا نفتش المنطقة . وكانت الاوامر المشددة لنا بأن نقتل من نجد منهم أحياء في بعض المخابىء ، كما كنا نقتل الجرحى في أرجلهم او أذرعهم . وكنا نتركهم في اماكنهم حتى تأتي الجرافة وتحفر لهم وتدفنهم بالعشرات ، ومعظم هؤلاء الناس كانوا من السكان الراغبين في العودة لاقاربهم وأملاكهم ، وهناك حوادث معينة لا يمكن ان انساها . ففي صباح احد الايام وجدنا شابين وفتاة غير مصابين ، تكلمنا معهم باللغة الانكليزية، واحسست انه لا يجوز ان نقتلهم ، ولكن الضابط المسؤول اعطى اوامره فقتلناهم على الفور . مرة ثانية وجدنا اثنين من الجرحى ، طلبنا منهما اوراقهما . كانا مزارعين ، طلبا منا ان ننقلهما الى المستشفى ، تهكم عليهما الضابط وأمرنا بقتلهما ، سمعنا احدهما يلفظ كلمته الاخيرة «فلسطين» . ومرة اخرى كانوا اربعة ورجونا بان لا نقتلهم، تركنا معظمنا المكان لانهم كانوا ابرياء في راينا ومظهرهم وكلامهم يوحي بأنهم صادقون ، ولكن الضابط عاد بنفسه وأطلق عليهم عشر عيارات نارية . ان القصص كثيرة ، ولكنني اروي فقط حوادث رأيتها بعيني ، اخبرني بعض زملائي الجنود انهم كانوا يحرقون الجثث بالعشرات في بعض الاحيان . رأيت مرة كومة من الجثث بينهم جثة فتاة صغيرة ، ومرة اخرى رصدنا حوالي عشرين شخصا يعبرون ، ودفعة واحدة حصدنا منهم احد عشر شخصا .. كان كل هذا في تموز عام ١٩٦٧ » .

وينهي العسكري الاسرائيلي حديثه بقوله : انني اعطي هذه المعلومات على امل ان تصل الى كل مواطن في اسرائيل ، لعل هناك من يستطيع ان يوقف مثل هذه الاعمال .

ولعل ايضا من افظع وأشنع القصص التي سجلها التقرير الذي تقدم به مجلس السلام العالمي تحت عنوان «حقيقة الحرب في الشرق الاوسط» في شهر آب ١٩٦٧ ، التحقيق الذي أجراه في مخيم «خان دنون» قرب دمشق، وهو يضم العرب السوريين الذين نزحوا من الجولان والقنيطرة .

يروي التقرير : ان محمد القدسي من سكان قرية الحسينية كان يجلس

مع زوجته وابنتيه البالغتين وابنيه الشابين في فناء الدار عندما وصلت الدورية الاسرائيلية وبادرته بالسؤال : «ماذا تفعل هنا» ؟ قال : «انا في قريتي وفي بيتي» . قالوا له : «ليس لكم مكان هنا ويبدو ان لك ابنتين وولدين من تفضل ان نأخذ» ؟ تشاورت العائلة وتطوع الولدان مكان اختيهما .. اخذوهما الى الساحة العامة الفارغة وأطلقوا النار عليهما ، ثم عادوا وأخذوا الفتاتين .. يقول الوالد المريض «ما زالت اصواتهما ترن في أذني حتى الان» .. لقد ثبت فيما بعد ان كل قرية في الاراضي السورية المحتلة تعرضت للاذلال وللنهب والقتل الجماعي والاخراج بالقوة .

قالت الجارديان في عددها الصادر في الرابع عشر من تموز ان الطائرات الاسرائيلية كانت تقصف وترهب النازحين من المناطق العربية الى العواصم وخاصة بين طريق القدس واريحا .

اما عن الاماكن المقدسة التي دنسها الصهاينة فما اكثر الروايات واصدقها . روت «التايم ماجازين» في عددها الصادر في العشرين من شهر حزيران ١٩٦٧ رواية عن المؤرخ الاسرائيلي «الداد» عندما سئل عن كيفية اعادة بناء هيكل سليمان بدون ان يعرض المسجد الاقصى للتدمير قال : «من يدري ؟ ربما تحصل زلزلة كبيرة» ومع الايام وبعد اعلان توحيد مدينة القدس التي رفض العرب ان يعترفوا بها اصبح وزير الاديان الاسرائيلي يراقب الخطب التي تلقى في المسجد الاقصى والجوامع الاخرى. وفي السابع عشر من شهر آب ١٩٦٧ نقلت وكالات الانباء تصريحا لحاخام اسرائيل العسكري يطلب فيه اعادة بناء الهيكل في نفس فناء وباحة المسجد الاقصى والمقابل له . واما عن الحرم في الخليل فقد استولوا عليه بشكل وبآخر منذ الاسابيع الاولى للاحتلال .. وقد سجلت الوثائق مجموعة من الاعتداءات والتصرفات السيئة للصهاينة في كنيسة القيامة والاماكن المقدسة الاخرى .

هذه المعلومات الموثقة التي كنت اقرأها وأنا في قريتي الوادعة بعيدا ولو مؤقتا عن بعض المشاكل الحية المباشرة .. وقد حرصت على تسجيل القليل منها في مطلع اشهر الاحتلال لعام ١٩٦٧ لاعطي فكرة لبني قومنا ، وللذين يعيبون على شعبنا عدم صموده وقدرته على مواجهة الاحتلال ، وللذين اساءوا تفسير نزوحه في كثير من الحالات .

★★★

٢٠ تشرين الثاني ١٩٦٧ :

فاجأني صديقي «ع» على غير موعد وقال لي ان الاخوان يريدونني في مدينة القدس لحضور بعض الاجتماعات الهامة المكشوفة مع بعض الشخصيات السياسيةالفلسطينية لدراسة اوضاع شعبنا فيظل الاحتلال، ومقاومة الاجراءات القذرة التي يتخذها الصهاينة بحق البلاد والشعب ، ولما كنت غير مؤمن بان اساليبنا قد تفيد امام الرأي العام العالمي ، ولن تجدي والعجز العربي في قمته ، فقد رفضت المبدأ ورفضت ان اكشف نفسي فأتعرض للطرد خارج البلاد دون جدوى ، وأخبرته ان هذا العمل يجب ان ينظم مع العناصر الوطنية الثورية لتشرف على المقاومة السلبية فلا فائدة من التعاون مع الوجهاء للنفَس الطويل مع علمي انهم متألمون وان مصالحهم قد تأذت وان بعضهم قد اخذ مواقف جيدة وتعرض للاقصاء والطرد ولكني كنت مع العمل من خلال التنظيم وعلى المدى الطويل وخاصة بعد ان بدأ الكفاح المسلح يأخذ مداه ..

أصر على ان يصحبني الى مدينة رام الله وان يخرجني من عزلتي ، كان يؤمن بأنني استطيع عمل الكثير في هذه الظروف وبالاسلوب العلني ، وكنت اخالفه ، وأخاف عليه من الانكشاف لانه كان يعمل على أكثر من جبهة داخلية وخارجية .

٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ :

وصلنا رام الله مدينة المثقفين من محامين وأطباء وصيادلة .. ووجدناهم كالعادة يجلسون في الفندق الكبير المشهور يستمعون الى الاخبار ويحللون وينظرون ويفلسفون المأساة . كان البحث التقليدي الخالد ما زال مستمرا ، متى يخرج الصهاينة ؟ وكيف ؟ وعلى اي اسس واية شروط ؟ نفس الافكار والآراء المعادة المكررة ، وان كان وطيس الجدل والحوار قد ارتفعت حرارته فانما بسبب الانباء المتضاربة المتوقعة من هيئة الامم وقراراتها المتوقع صدورها عن مجلس الامن في دورته المنعقدة في حينه .

كان التيار قد جرف كل الناس او معظمهم على الاكثر ، ومن خلال التمنيات والالم ومختلف المشاعر التي يعانيها الناس في ظل الاحتلال صدر

قرار ٢٢ نوفمبر القاضي بالانسحاب الاسرائيلي ..

وفي غمرة الفرحة بالانسحاب لم يتمعن حتى هؤلاء المثقفون بنص القرار وكلماته والفاظه، وهنأ الناس بعضهم بعضا بالسلامة والنجاة من الاحتلال..

ومرت ايام قليلة قبل ان يبدأ الخلاف على تفسير القرار الذي وضعه وصاغه اللورد كاردون البريطاني والذي ما زال الشعب العربي بأسره ، والعالم كله يناقشه ويناقش محتوياته ومعانيه والفاظه .. وبغض النظر عن من قبله او رفضه من العرب فلم تمر اسابيع قليلة حتى اتضح ان اسرائيل تستفيد كليا من غموض القرار وتلعب على معانيه وعلى الفاظه ..

اما الثوار الحقيقيون على قلتهم في تلك المراحل ، واما الذين لم يفقدوا قدرتهم على التفكير السليم وما أقلهم ايضا في تلك المرحلة ، فلم يأبهوا للقرار لانه في رأيهم لا يحل مشكلة الامة العربية ، ولانهم يفهمون طبيعة الصهيونية التوسعية ، ولانهم ادركوا ان اللعبة بدأت من جديد ودخل الناس في الدوامة افواجا افواجا ..

وعدنا الى انفسنا الى عقولنا ، الى حفنة الثوار نخطط كيف نقاوم الاحتلال وكيف نفهم العقل الاسرائيلي من اجل محاربته .

٢٦ تشرين الثاني ١٩٦٧ :

ما زالت عمليات التهجير القسري الفردي والجماعي على أشدها . وقد بدأ يتضح للعالم الخارجي ، العربي منه والاجنبي ، ان الآلاف المؤلفة من الفلسطينيين الذين يعبرون الجسر الى الضفة الشرقية انما يفعلون ذلك تحت ظروف لا قبل ولا قدرة لهم على منعها ، خاصة في المناطق والمخيمات التي قصفتها ودمرتها العصابات الصهيونية المسلحة ممثلة بجيش «الدفاع» الاسرائيلي الذي لم يترك وسيلة من وسائل الارهاب والقمع الا مارسها على الناس والمواطنين دون تمييز ، فكان يسوقهم سوقا الى الجسر ويقذف بهم للعراء . ولقد اكدت هذه الحقيقة كل وكالات الانباء الاجنبية وكافة الصحفيين الاجانب ومجموعة كبيرة من السياسيين الاجانب الذين دخلوا الضفة الغربية بعد الاحتلال فسجلوا ملاحظاتهم ، وكتبوا مذكراتهم ، وتقدموا بشهاداتهم لمختلف اللجان العالمية ولهيئة الامم المتحدة ، مما ازال الادعاء او الوهم عند ضعاف النفوس من ابناء أمتنا ، من ضحايا اكاذيب

واشاعات العدو ، ان الشعب العربي الفلسطيني يخرج وينزح من تلقاء نفسه ودون ان يمارس عليه اي اعتداء . لقد قدمت في بعض الاجزاء السابقة من مذكراتي الوثائق والدلائل المادية حول هذا الموضوع بالذات ، كما سأفعل اليوم ، وأنا احضر هذه المذكرات صباح هذا اليوم الذي تلا بأيام قليلة فقط اعلان قرار مجلس الامن ، والذي بدأت الشبهات تدور من حوله، وحول معانيه وألفاظه ، مما زاد في خلق البلبلة والاوهام عند بعض فئات الشعب غير المعبأة وغير المنتظمة والملتزمة ثوريا ، مما لا تجوز عليها مثل هذه الاباطيل .

اكتب اليوم كل هذا لادلل على رفض شعبنا المطلق للاحتلال منذ اليوم الاول الذي وقع فيه . وسأتعرض في هذا الفصل الى حركة المقاومة السلبية التي نشأت مباشرة بعد الاحتلال والدور الذي لعبته على امتداد السنة الاولى لاقدم نموذجا وأسلوبا نضاليا فعالا لا بد ان يستفاد منه دائما عبر صراعنا التاريخي مع الصهيونية واسرائيل حتى يتم لأمتنا النصر .

كما انه لا بد من التذكير بأن هذا الاسلوب النضالي على اهميةممارسته في ظل الاحتلال لم يكن ولا يجوز ان يكون بديلا عن الكفاح المسلح طريق الثوار والثورة الوحيد للتحرير ، ومنها كان لا بد من تزاوج الاسلوبين بحيث يتمم الواحد منهما الاخر ، وهذا ما حصل بالضبط في الارض المحتلة ، مما جعل الصهاينة يستشرسون امام صلابة الرفض والمقاومة الفلسطينية ، فينتهجون كل الوسائل الداخلية والخارجية ، الاجنبي منها والعربي ، لقمع المقاومة وضرب الصمود بشتى الوسائل والاساليب ، بدءا بالحصار الاقتصادي والتجويع وبالتالي دفع الناس للتعامل ، وانتهاء بالقتل والسحق ، وتدبير المجازر هنا وهناك للشعب الفلسطيني .

٢٩ تشرين الثاني ١٩٦٧ :

أراني مضطرا لان اعود الى بعض وثائقي ومذكراتي الخاصة عبر هذه الفترة ، والتي كنت أدون فيها بعض الملاحظات في الجلسات والاجتماعات التي بدأت في الايام الاولى للاحتلال لبعض رجالات وشباب الضفة الغربية من اجل مقاومة الاحتلال ، ولعلي مضطر ايضا لتجاوز بعض الاسماء والاشخاص من قبيل الامن وعدم كشفهم ، كما انني سأعطي لكل من أسهم

في القليل او الكثير حقه ، حتى من الذين تخلفوا وعادوا فوهنت عزائمهم وسقطوا ، محافظة مني على مصداقية هذه المذكرات ، وللتدليل ان رجال المقاومة السلبية وخاصة الثوريين منهم كانوا يدركون من الاصل ان ثمة عناصر وطبقة معينة ترفض الاحتلال عفويا وكردة فعل ، وتقاومه لمرحلة معينة ، ومن ثم تستسلم امام وطأته ، ومن ضمن مصالحها الخاصة ، لتصبح بالوعي او اللاوعي منتفعة بالاحتلال، تترك في بعض الحالات للاخرين مقاومته ، وتتعاون هي معه من اجل استمرار مصالحها في حالات اخرى .

ان وجود مثل هؤلاء الناس في مراحل الاحتلال لا يشكل ظاهرة غريبة وجديدة ، فهم في كل عصر ، وكل زمان وكل مكان . ومع ذلك تستمر بعض هذه الاسماء في نطاق العمل السلبي والتي كانت تدفع في كثير من الاحيان لاتخاذ المواقف الصحيحة .

نيسان عام ١٩٦٨

من الاوراق القديمة التي بين يدي ومن اوراق صديقي «ع» الذي التحق نهائيا بالكفاح المسلح وانضم الى محمد رؤوف في منطقة نابلس ، يتأكد ان حركة المقاومة السلبية بدأت في الايام الاولى القليلة للاحتلال .

١٥ حزيران ١٩٦٧

ففي الخامس عشر من شهر حزيران عام ١٩٦٧ وفي بيت الزميل «ب» التقى مجموعة من الشباب العقائديين والوطنيين في مدينة «البيرة» من قضاء رام الله ، وتدارسوا امكانية بداية العمل في ظل الظروف القائمة . كانت هذه هي الجلسة الاولى الجدية التي تطرح فيها الامور طرحا صحيحا بعد ان صحا الجميع من هول الصدمة التي نزلت بنا ، وكان قد سبق هذه الجلسة جلسات مبعثرة في بيت الزميل «م» وبيت الزميل «ك» في مدينة رام الله ، ولكنها لم تكن منظمة وكانت تحليلية اكثر منها جلسات تخطيط وعمل .

في مدينة البيرة وفي منزل «ب» التقى ، وبناء على موعد ، اثنان

بعثيان ، واثنان شيوعيان ، وواحد من حركة القوميين العرب وثلاثة من الشباب الوطنيين الملتزمين وقرروا انه لا بد من تشكيل مثل هذه اللجان في كل مدينة وبلدة في الضفة الغربية على ان تكون النواة الحقيقية للعمل والتحرك من العناصر الملتزمة تتوسع من ضمن اتصالاتها وعلاقاتها بكل المواطنين . ويضاف لهذه اللجان كل العناصر التي تستطيع التفرغ والعمل، عين اثنان من اللجنة ضباط اتصال بين المدن المختلفة لتشكيل هذه اللجنة.

ولم يفاجأ ضابطا الاتصال وهما الاخ ابراهيم والاخ كمال عند بدء تحركهما في المناطق المختلفة عندما وجدا ان الشباب الوطني الملتزم قد بدأ في التجمع ، وان الجميع كان في انتظار من ينسق العمل ويدفعه الى الامام . ولم تستغرق المحاولة اكثر من اسبوع كان فيه هذا الجزء من التحرك في منتهى السرية لم تستعمل فيه السيارات الخاصة مطلقا ، ولم يكن هناك اية صعوبة في تشكيل مثل هذه اللجان ، فلقد كانت النفوس مهيأة ، وكان الرفض التلقائي العفوي للاحتلال هي السمة الغالبة عند كل المواطنين . وهنا احب ان أسجل ملاحظة العبرة فقط ومواجهتها بكل صدق وأمانة ، حتى نتمكن من التغلب عليها في المستقبل وهي انه بالرغم من الوضع المزري السيء الذي كان يشمل الجميع في هذه المرحلة ، الا ان ما كان من خلافات وحساسيات وتعارضات بين القوى الوطنية في الماضي، سحب نفسه بعض الشيء على محاولاتنا ، مما كان يثير الاشمئزاز والقرف في بعض الحالات ، كما ان الفردية الخاصة ، والذاتية ، وحب الزعامة المحلية عند الكثيرين من الوجوه البارزة في معركتنا الجديدة اضاع من وقتنا ونحن في سبيل بناء الجبهة السلبية لمقاومة الاحتلال .

بعد جهد متواصل تشكلت اللجان الملتزمة في المناطق وانبثق عنها لجنة مركزية من ثمانية اشخاص تتولى الاتصال بالمواطنين البارزين في اقاليمهم وتتولى اعداد النشرات والمذكرات ، وتعبئة الجماهير في كل مكان.

٣٠ حزيران ١٩٦٧ *

في الثلاثين من حزيران وزع في الاقاليم المختلفة اول منشور رسمي من رجال المقاومة السلبية باسم «الحركة الوطنية الفلسطينية» ترفض فيه الاحتلال وتحتج عليه وتدعو المواطنين في كل مكان للوقوف موقفا سلبيا

من الاحتلال وعدم التعاون ، واستنكار العدوان بكل الوسائل والسبل .

ومن باب الحقيقة والانصاف كانت هناك فئات وطنية متعددة قد بدأت تتحرك وتتجمع وتتشاور في امر الاحتلال ، لاسيما انه ومن الايام الاولى قد ظهرت نوايا العدو الشريرة تجاه مدينة القدس . فبالاضافة الى مصادرة الاراضي والاملاك والاهانات المتعاقبة لرجال الدين والاماكن المقدسة ، فقد كان ضم والحاق مدينة القدس العربية للاراضي المحتلة عام ١٩٤٨ مما فجر وحرك الناس في المدينة وسائر مدن الضفة الغربية .

كان الشيخ عبد الحميد السايح رئيس المجلس الاسلامي الاعلى ، والسيد روحي الخطيب امين عام القدس من ابرز العناصر الوطنية التي تحركت بعد الاحتلال مباشرة ، ولقد اشترك كلاهما في اللجان الوطنية التي كانت تجتمع للدفاع عن حقوق المواطنين وتثبيتهم في الارض ومقاومة الاحتلال .

ففي الثاني والعشرين من شهر تموز عام ١٩٦٧ وجّه روحي الخطيب ومعه كافة اعضاء أمانة القدس وهم نهاد ابو غربية ، والدكتور ابراهيم طليل وفايق بركات ، وعلي الطزيز ، والدكتور رشيد نشاشيبي ، والسادة موسى البيطار وعبد الغني النتشة ، وجهوا مذكرة قوية الى الحكومة الاسرائيلية رفضوا فيها ضم القدس وأعلنوا ان هذا الاجراء يعني تهويد المدينة . ولكن السلطات أمعنت في غيها ولم تجب حتى على المذكرة .

٢٠ — ٢٤ تموز ١٩٦٧ :

بين العشرين والرابع والعشرين من شهر تموز توالت اجتماعات اللجنة المركزية وزادت من اتصالاتها مع وجهاء وأعيان الضفة الغربية ، وكانت السلطات قد بدأت تراقب هذه الاجتماعات ولكن ضم القدس الى الاراضي المحتلة أخرج بعض القياديين عن تحفظهم ، وأصبح الشيخ عبد الحميد السائح مركز استقطاب لكل العناصر الوطنية حول هذا الموضوع .

وفي مساء الثالث والعشرين من الشهر نفسه عقد اجتماع موسع في القدس ، ولم تكن مفاجأة لي عندما دخل صاحبي «ع» ومعه شخص آخر يدعى «ابو ربيع» . تعرف المجتمعون اليه وأبلغهم أنه على استعداد ان يقوم بعملية تفجير كبيرة في المدينة ، وانه قادم من طرف محمد رؤوف ويريد

استطلاع رأيهم في الموضوع قبل ان يقدم عليه . وفيما اذا كان يساعدهم في هذه المرحلة ، كما قال : «انه يقوم بهذه الاستشارة بناء على نصح صديقه «ع» الذي يعرف بطبيعة عمل هذه اللجنة» . انقسم موقف الحضور حول هذا الامر ، وارتأت الاغلبية ان يترك للشخصيات السياسية معالجة هذا الامر بوسائلهم حتى لا يزيد الضغط على المدينة .

في الرابع والعشرين وقع انفجار كبير في ضواحي القدس ، كما وقع اشتباك مسلح على طريق العيزرية وهو اليوم الذي تقدم فيه الشيخ عبد الحميد السائح ومعه مجموعة من أعيان وزعماء ووجهاء الضفة الغربية المسلمون بمذكرة شديدة اللهجة لسلطات الاحتلال حول ضم القدس ، وقد صاغ هذه المذكرة المحامي أبراهيم بكر ومعه الشيخ عبد الحميد السائح . وقد وقعها بعض المسؤولين والوجهاء على رأسهم روحي الخطيب ، والشيخ السائح ، وأنور الخطيب ، محافظ القدس ، وحلمي المحتسب عضو محكمة الشريعة العليا ، والشيخ سعيد صبري قاضي القدس، والشيخ سعد الدين العلمي مفتي القدس ، ومجموعة الوجهاء على رأسهم المؤرخ عارف العارف، والقاضي كمال دجاني ، وفؤاد عبد الهادي ، وعبد الرحيم الشريف ، وحافظ طهبوب ، وسعيد علاء الدين ، وعمر الوعري ، وعبد المحسن ابو ميزر ، واسحق الدزدار ، وداوود الحسيني ، وصبحي غوشة وعلي الطزيز ونهاد ابو غربية .

في هذا اليوم بالذات ، اعتقلت السلطات الاسرائيلية ليلا الشيخ عبد الحميد السائح وطردته خارج الحدود الى الضفة الشرقية ، وفرضت منع التجول على مدينة نابلس من الساعة التاسعة مساء حتى السابعة صباحا.

نشرت المذكرة التي قدمها زعماء القدس وبعض الشخصيات السياسية على نطاق واسع في العالم ، وكانت اسرائيل ما تزال تطبق قانون الطوارىء المعمول به منذ عام ١٩٤٥ على زمن الانتداب البريطاني . وقد ظنت اسرائيل ان اي اجراء تتخذه بحق بعض موقعي المذكرة سيمنع الاخرين عن الحركة. فأخذت قرارا بنفي اربعة من موقعي العريضة الى اماكن مختلفة من الارض المحتلة ، وهم السادة :*داوود الحسيني ، وابراهيم بكر ، وأنور الخطيب وعبد المحسن ابو ميزر .

لم يرهب هذا الاعتقال احدا ، بل زاد حماس الناس للمقاومة السلبية. وكانت قوات العاصفة قد اعلنت قبل عدة ايام بيانها رقم «٧٢» منذ ان بدأت نضالها المسلح عام ١٩٦٥ .

أوائل ايلول :

اجتمعت اللجنة المركزية في مدينة نابلس في أوائل سبتمبر لتدرس اوضاعها وتعيد النظر في اساليبها ، وقد اعتقل احد اعضائها البارزين ، وكانت قد بدأت المطاردة والمتابعة لبعض اعضائها بالرغم من تكتمهم . تقرر ان يتابع العمل ، بمزيد من العلنية للشخصيات السياسية وبمزيد من الكتمان للعناصر الملتزمة بالتنظيم حتى لا تفرغ البلد من القياديين .